

طرح حسين

الشاعر الكاتب

تأليف

محمد سيد كيلاي

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

سنة ١٩٦٣

دار القومية العربية للطباعة
تليفون ٨٢٦٣٢٤

طرح حسين

الشاعر الكاتب

تأليف

محمد سيد كيلاي

ماجستير من كلية آداب جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

سنة ١٩٦٣

دار الفؤة العربية للطباعة والقاهرة

١٦ شارع الزهراء ٢٣٤ ٨٢٦

شبكة كتب الشيعة



shiabooks.net

رابطه بديل < mktba.net

إهداء الكتاب

إلى العميد للتقاعد الأستاذ يوسف السباعي

أهدى الكتاب إلى فتى القتيان سبع السباع وفارس الليدان
أرضيت سعدا والفريد ومصطفى وذوى العروبة من بنى عدنان
سعد الذي قاد الجموع بحكمة وبرحمة ومودة وحنان
سعد الذي ملأ القلوب مهابة لم يلتجئ لمهند وسانان
فاسلك ولو قدما على آثاره وارك سبيل البغي والعدوان
من لا يخاف الله في إخوانه لا يُرتجى للنصر يوم طعان
إني أرى «توفيق» يأكل بعضه وهو «الحكيم» يموت بالسرطان
في النار يلطم وجهه متوجعا وأبوه يبكي كالأسير العاني
يكوى كما يكوى الحمار لعلّة ويُجرّ مرّميا على الأذقان

(١) كانت مجلة الرابطة العربية قد وجهت في ١٥ / ٦ / ١٩٣٧ استفتاء حول « العلم للعلم ، أم العلم للوطنية » فقال توفيق الحكيم : العلم والوطنية لا يمكن أن يتفقا ، فهما مختلفان واختلافهما هذا سيستمر إلى الأبد ، ولن يزول في يوم من الأيام . وبرهن على هذه الدعوى بقوله إن الوطنية هي الأنانية في المجموع ، والأنانية عمياء . والعلم هو البصر المنزه بحقيقة الأشياء .

وقد رد عليه ساطع الحصري في مجلة الرسالة بتاريخ ١٢ / ٦ / ١٩٣٧ مبيّنا الأضرار التي تحيق بالعرب من جراء انتشار مثل هذه الآراء الفاسدة . وقال : لئنا مهما تعمقنا في تحليل طبيعة العلم من جهة ، وطبيعة الوطنية من جهة أخرى ؛ لانجد بينهما ما يستوجب الاختلاف بوجه من الوجوه . وقال لأنه يستطعم أن يذكر وقائع تاريخية كثيرة تشهد على اتفاق العلم مع الوطنية ، وخدمة العلم للوطنية .

جحد العروبة مجدداً وعلاءها تبّت يدها وباء بالخسران (١)
ومضى يردد كل ما فاهت به أبناء صهيون الصغار الشان
يا ببغاء عليك نفسك فاثّبت لا تُنكرنّ الشمس في الدوران

(١) كتب توفيق الحكيم في مجلة الرسالة « العدد العاشر في ١ / ٦ / ١٩٣٣ » مقالا تحت عنوان « إلى الدكتور طه حسين » جاء فيه « كل تفكير العرب ، وكل فن العرب في لذة الحس والمادة . لذة سريعة منهومة مختطفة اختطافاً ، لأن كل شيء عند العرب سرعة ونهب واختطاف . عند الاغريق الحركة أى الحياة ، وعند العرب السرعة أى اللذة »

« كل شيء يحسونه — يعنى العرب — إلا عاطفة الاستقرار ، وكيف يعرفون الاستقرار وليس لهم أرض ولا ماض ولا عمران ؟ دولة أنشأتها الظروف ولم تنشئها الأرض . وحيث لا أرض فلا استقرار ، وحيث لا استقرار فلا تأمل ، وحيث لا تأمل فلا ميتولوجيا ، ولا خيال واسع ، ولا تفكير عميق ، ولا إحساس بالبناء . لهذا السبب لم يعرف العرب البناء سواء في العمارة ، أو في الأدب ، أو في النقد . الأسلوب العربي في العمارة من أوهى أساليب العمارة التي عرفها تاريخ الفن . وإذا عاش اليوم فإنما يعيش بالزخرف » .

هذا ما قاله توفيق الحكيم في حق العرب والأمة العربية ، وهذه أحكامه على الشعب العربي المنتشر ما بين الخليج إلى المحيط من أقدم العصور إلى اليوم . فإن كان توفيق الحكيم عربياً تجرّى في عروقه الدماء العربية ، فأحكامه التي أصدرها على الشعب العربي تنسحب عليه وتجري على أدبه وفنه . وإن كان من عنصر غير عربي ، فواجبنا نحن العرب أن ندافع عن أنفسنا وأن نرد كيده إلى نحره .

إن كلام توفيق الحكيم هذا لا يصدر إلا من رجل جاهل تائه في الضلال ، أو متعامل على العرب ، مبغض لكل ما هو عربي ، حريص على هدم مجد الأمة العربية لثرعة شعبية . انطوت عليها نفسه الخبيثة . وقد رد عليه الدكتور طه حسين في العدد الحادى عشر من مجلة الرسالة الصادر في ١٥ / ٦ / ١٩٣٣ بمقال تحت عنوان « إلى الأستاذ توفيق الحكيم » جاء فيه :

« ... ولكن رأيك في العرب وآثارهم في حاجة شديدة جداً إلى التقوم . وقد ذهب إلى مثل ما ذهبت إليه جماعة من المستشرقين منهم دوزى ورينان . وأحسبكم جميعاً تظلمون العرب ظلماً شديداً ، وتقصون في أمرهم بغير الحق » .

« فلو أنكم ذهبت تقارنون بين العرب وبين الهنود والفرس والمصريين القدماء لما كان من حاكم أن تقدموا هذه الأمم في الأدب على الأمة العربية بحال من الأحوال ، لأننا =

مجد العروبة كالغزاة بَيْنُنا والله ينصرنا على الشيطان (١)

* * *

= لانكاد نعرف من آداب هذه الأمم في تاريخها القديم شيئاً يقاس إلى ما بين أيدينا من الأدب العربي . فإلى أن يستكشف أدب هذه الأمم — إن كان لها أدب أكثر من الذي نعرفه — يجب أن نؤمن للعرب بالتفوق عليها في الشعر والنثر جميعاً .

« وأنت تميز اليونان بالحركة ، وتميز العرب بالسرعة ، وتستنبط من هذه السرعة ظلماً كثيراً للعرب . وليس من شك في أن العرب يشاركون اليونان في الحركة ، ولكن ليس من شك أيضاً في أنك تغلو غلوا شديداً في وصفهم بالسرعة . »

« ورأيك في الموسيقى العربية واليونانية في حاجة إلى التصحيح أيضاً . فنحن نعلم من الموسيقى اليونانية شيئاً يسيراً غير مضبوط . ولا نعلم من الموسيقى العربية شيئاً . ولست أدري إلى أي أمة أو إلى أي جيل تستطيع أن ترد هذه الموسيقى وهذا الغناء اللذين تتحدث عنهما . ولكن الشيء الذي لا شك فيه هو أنه من العسير جداً أن تردهما إلى العرب القدماء . وكل شيء يدل على أن الموسيقى العربية والغناء العربي أيام الأمويين والعباسيين كانا متأثرين أشد التأثير بالموسيقى البيزنطية والغناء البيزنطي . فإن أردت أن تعيها فلا تنس أن تعيب أصلهما اليوناني القديم . »

(١) وضع توفيق الحكيم نفسه في خدمة الشيطان ، وسخر قلبه التافه لصالح الاستعمار الفرنسي الذي كان يحرص على هدم الروح القومية بين العرب . واعتنق آراء دوزي ورينان ، وهما معروفان بشدة عدائهما لكل ما هو عربي ، وحقدما على كل ما هو إسلامي . وطفق يروج لهذه الآراء دون وازع من ذمته أو رادع من ضميره . وقد قدرت له الحكومة الفرنسية جهده في هذا السبيل فأُنعمت عليه بنبشان رفيع . وكان يسافر إلى فرنسا في كل صيف مع أن موارده المالية لم تكن تسمح له بذلك ، ومع ما عرف عنه من البخل الشديد ، ولكن شركات الملاحة الفرنسية كانت تمنحه تسهيلات . وفي باريس كانت تستضيفه بعض الهيئات الاستعمارية الفرنسية .

ومضى يؤلف للفساح قصة تحكي نبيَّ العرب والعُجمان^(١)
فيها القبايح والمخازي جمّة شخصُ النبيِّ نجيبُ الرياحي

(١) كتب توفيق الحكيم في مجلة الرسالة « عدد ٢٩٨ في ٢٠ / ٣ / ١٩٣٩ » مقالا جاء فيه « حدث في الأسبوع الماضي أمر أحب أن أسجله هنا ؛ هو قيام القيامة في الجامعة ضد كتابين قيمين ، لأنه قد ورد فيهما طعن في الإسلام » .

« لا أريد أن أنظر إلى الأمر من ناحية التفكير الحر ، ولا من حيث تأثير هذا الموقف في الحياة العقلية للبلد متحضر ، ولكنني أريد أن أبحث المسألة من جهة الدين نفسه . وهنا يبدو لي العجب : لماذا كل هذا الفزع كلما وقع بصرنا على عبارة تمس الإسلام ؟ إن الكتب التي عالجت المسيحية في أوروبا وتعرضت للمسيح بالطعن والتجريح تطبع وتنتشر في أوروبا دون أن يخشى أحد على كيان المسيحية » .

هذا ما قاله توفيق الحكيم ، وفيه مغالطة ظاهرة . وقد ثار في وجهه علماء الأزهر ثورة عارمة ، ورد عليه الشيخ أحمد عبد الرحمن عيسى من كلية اللغة العربية في مجلة الرسالة عدد ٢٩٩ في ٢٧ / ٣ / ١٩٣٩ فأخذ عليه وصفه الكتابين بأنهما قيমান مع أن فيهما طعنا صريحا في الإسلام وفي النبي محمد صلى الله عليه وسلم ، لا مجرد مسائل علمية تستحق المناقشة . ثم قال « وهنا أسألك متحدياً : أي برنامج من برامج التعليم في أوروبا قررت فيه تلك الكتب وفرضت فرضاً على الطالب أن تكون من أسس ثقافته الرسمية ؟ هذا من ناحية . ومن ناحية أخرى فإن هذا الطعن صريح باعترافك أنت ، لاشبه علمية تستحق جلال الدرس وعظمة العلم . وفوق ذلك كله لأنها موجهة لشخصية الرسول أكثر منها لدينه ، فكيف يستسيغها شعور الجماهير من المسلمين ؟ ألا ترى أن انجلترا حرمت دراسة نظرية دارون في مدارسها احتراماً لشعور الجماهير ؟ »

وكذلك للصديق فيها موقف يروى بشارٍ وكيمُ النصراني (١)
واختار تمثيلاً لفاطمة العـلا بنت الخلاعة مريم الزرقاني (٢)
واختار طاهرة لتحكي موقفاً لمقام عائشة العلى الرباني

(١) كتب توفيق الحكيم في مجلة الرسالة عدد ٢٩١ في ٣٠ / ١ / ١٩٣٩ مقالا تحت عنوان « خروف العيد » جاء فيه « لاني أتجنب دائماً رؤية خروف العيد . لاني أتخيل دائماً معاني هذه النظرات الهادئة العميقة التي تنبعث من عيون هذه الحيوانات الوداعة الأليفة . لأنها لأبلغ في إنسانيتها أحيانا من بعض نظراتنا الآدمية التي يشع منها بريق جشع حيواني »
ثم قال على لسان الخروف « آه للانسان ! ما أبرعه في لإلباس صغير الفعـال رائع الثياب !
لأن الفراش السفلى مازالت هي الناموس الأعظم لنا ولكم ، ولم تستطيعوا مع قدرتكم وقوتكم أن تخرجوا عن نطاقها قيد أنملة »

ومن المعروف أن الخراف تذبج كل يوم في جميع أنحاء العالم ، ولكن توفيق الحكيم — قبحه الله — اختار الكلام على خروف العيد بالذات ليسخر بأحد الطقوس الإسلامية ، فالله سبحانه وتعالى يقول لنيه « فصل لربك وانحر » وكان النبي صلى الله عليه وسلم يتولى ذبح الضحية بيده . ولكن توفيق الحكيم يقول لأنه يتجنب رؤية خروف العيد ، ويقول لأن الفراش السفلى هي التي تتحكم فينا فتدفعنا إلى ذبح خراف العيد . فهل هذا كلام يصدر من مسلم ؟؟ ولماذا كان توفيق الحكيم قد ارتد عن الإسلام بهذا القول ؟ ألا يجب أن يطبق عليه حكم المرتدين ؟

(٢) جاء في العدد ١٢٧ من مجلة الرسالة الصادر في ٩ / ١٢ / ١٩٣٥ مانصه :

« كتب توفيق الحكيم إلى أحد أصدقائه الفرنسيين يقول : إن كتابي عن محمد لا يزال في طور التحضير والتهيئة ، وعسى أن أتمه في الشتاء المقبل » وقد فكر في تأليف مسرحية تناول جانباً من السيرة النبوية . وفعلاً أتم تأليفها ووزع أدوارها على بعض الممثلين ، ثم عدله عن ذلك خشية من ثورة الرأي العام .

أما بعد ، فهذا بعض ما كتبه توفيق الحكيم طعناً في العرب وفي الدين الإسلامي . وهذه المقالات قد جمعها في بعض كتبه التداولة بين الناس . فإما أن يعلن براءته من هذه المقالات ، ويعترف بخطئه وجهله . وإما أن يسكت فيعتبر مصراً عليها متمسكاً بها . وفي هذه الحالة ينبغي لنا أن نتساءل :

هل يستحق توفيق الحكيم أن ينعم عليه بقلادة النيل ؟ وهل يستحق أن يمنح جائزة الدولة ؟ وهل يستحق أن يبقى في وظيفته ؟

أبكى على شخص النبي يناله فدم قبيح السر والإعلان
يا ابن العروبة ، يا ابن كل موحد هذى قبائح للحكيم الجاني
أنا إن دفعت عن النبي محمد من ذا الذى بمحدثه يلحاني ؟

الثورة الحمراء زال كيانها وتحطمت بمطارق الحدمان
ستالين أحمل سيفه فى شعبه وأقام صرح الظلم والظفیان
عقل العقول زكيتها وغيبها برقابة ضربت على الأذهان
عبدوه فوق سريره من رهبة وتنكروا للواحد الديان
وأراد « بولجان » يسير كسيره فاذا به يهوى على الصوان
فتكسرت أضلاعه وتمزقت أوصاله للزور والبهتان
فالماعقل المحمود يترك قومه بينون ماشاءوا من البنیان
فاذا سبيل المجد ضلّ لأنه يبغي التحكم فى قلّ وفلان
فأقم عليه مناحة وجنازة فى كل منتجع وكل مكان
أأخاف من قول الحقيقة ؟ إننى لا أرتضى بالذل والخذلان
الله يشهد ما نظمت قصيدتى إلا لنصر الحق والإيمان
فعليك يا ابن أبى السباع تحية ممزوجة بالروح والريحان
وعلى أبيك الشهم ألف تحية نزلت عليه سحائب الرضوان
وعلى صحابتك الكرام وإنهم فخر الأنام وقدوة الشبان
يرعاك شعب باسل متحفز والله جل جلاله يرعانى
القاهرة فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٣ محمد سيد كيلانى

إهداء آخر

إلى العميد المتقاعد الأستاذ يوسف السباعي ، وفيه خيال ودعابة :

أهدى الكتاب إلى الفتى المغوار رب المكارم والقنا الخطار
القائد الجبار يبرق سيفه في رأس كل منافق وممارى
عوذت سيفك بالنبي محمد والطيبين الآل والأنصار
سيف يرد العاديات إذا عدت ويصب غضبته على الفجار
ضُرط (الحكيم) إذا رأى لمعانه وجرى إلى المرحاض جَرى الفار
لما هجمت على اليهود بهمة هربوا إلى الأعماق والأغوار
لله درك من هزبر أغلب قد حزت في الميدان كل فخار
ياناشر الألغام تفتك بالعدى يامنتقى من صفوة الأخيار
بمحمد خذها إليك قصيدة في عنفها كالصارم البتار
بترت لتوفيق الحكيم لسانه وأتت على حلقومه بالنار^(١)
دبجتها تحت الغطاء وذكرها قد طار في الآفاق كل مطار
محشوة مثل القطائف يشتهى أكلًا لها ذاك الفقير العارى
ماء الزبرجد لا يكون لمثلها كلا ولا ماء الفسيخ الجارى
لكن نجيع القلب ياكل المنى أرسلته كالكوكب السيار
لو كامل الشناوى رام لحاقها لارتد يلطم خده ويوارى

(١) كان المصريون منذ عهد عرابي ومصطفى كامل يطالبون بقيام حكومة دستورية برلمانية ، ولم يسمح الإنجليز بذلك محتجين بأن الشعب المصرى لم يصل إلى مرتبة تؤهله للحكم النيابى . ولما أعلن دستور سنة ١٩٢٣ حاربوه محاربة شديدة ، وصرح بعض أعوانهم بأنه ثوب فضفاض على المصريين . وقد أخذ توفيق الحكيم يروج لآراء الإنجليز ، فكتب سنة ١٩٣٧ مقالا ملاء بالمطاعن القبيحة في الحياة البرلمانية والحكم النيابى . لحقت معه وزارة المعارف =

أوجاءها عبد الصبور وحزبه لهوى هوى التيس فى المضمار
أو أن نازكة الملائك أقبلت فى جفهل من شعرها جرار
لتبينت أن الذى تهذى به هو كالهباب بجانب الأزهار

قالوا الجنان تفتحت أبوابها فى أرض روسية فقلت حذار
البؤس والطغيان فى جنبتها والموت فوق شفيرها المنهار
إن البلاشفة الكلاب تمرغوا فى الخزى والأحوال والأوضار
سئالين يهوى فى الجحيم وأمه تبكى عليه بمدمع مدار
أبناءؤه الجوعى ينوح صغيرهم وكبيرهم يقات بالاحجار
ماضره لو كان عامل قومه بالعدل شرع نبينا المختار
أين التماثيل التى كانت له فى كل منتجع وكل مسار؟
هلك اللعين وحطمت أصنامهم والله يخزى عصبة الكفار

== وحوكم أمام مجلس تأديب منعقد تحت رئاسة الوزير محمد حسين هيكل سنة ١٩٣٨ وكان من رأى المجلس أن يفصل المتهم من وظيفته ، ولكن هيكل استخدم نفوذه واكتفى المجلس بأن قرر خصم نصف شهر من مرتبه . ولم يرق هذا الحكم فى نظر المتهم فاستقال . وكان الطعن فى الحياة النيابية إذ ذاك يعنى الترويح لذكثاتورية الملك فاروق . وفى سنة ١٩٥٠ خلت وظيفة مدير دار الكتب فسمى الحكيم للحصول عليها فعارض طه حسين وزير المعارف فى ذلك الوقت معارضة شديدة ورفض أن يحميه لى طلبه . فاستعان الحكيم بالقصر ، وحينئذ تم تعيينه

فاحذر أخى تساق فى تياره
أين السجون وأين برىا عبده ؟
أبناء برىا فى العراء مبيتهم
وبناته فى حضن كل مرفه
فاحذر تاجر على بنيك مصيبة
فاحذر تاجر على بنيك مصيبة
كررت له لتكون منه على هدى
يا أخر شيشيف عليك ألف تحية
واجعل بلادك قصد كل مؤمل
كيف التعايش فى السلام وأتمو
لا الخبز ينفعنى ولا أرضى به
حتى يرى خلوا من الأكدار
القاهرة فى أول أكتوبر سنة ١٩٦٣

محمد سيد كيدانى

(١) كان برىا وزيراً لشئون الأمن العام فى الاتحاد السوفيتى ، وكان يعمل تحت يده جيش كثيف من رجال الشرطة السرية ، وقد أشاع جواً قاتماً من الإرهاب والظلم لم يسبق له مثيل فى تاريخ أى شعب من الشعوب ، وكان برىا سبباً فى إعدام مئات من الأبرياء ، وفى اعتقال مئات الألوف وتعذيبهم فى معسكرات الاعتقال حتى مات منهم كثيرون . وقد اعترفت بذلك الصحف الشيوعية ونشرت مقالات طويلة عن فضائعه وجرائمه الوحشية التى ارتكبها فى حق مواطنيه .

مقدمة

لما قامت الثورة المباركة ، وفتح باب التطهير أعلنت الحكومة أنها ستحمى الموظفين الذين يدلون ببيانات عن وجود فساد فى المصالح الحكومية ، وأنا إذ ذاك موظف بدار الكتب . فكتب بعض زملائى مذكرة وأرسلوها إلى مجلس قيادة الثورة ، وكنت من ضمن الموقعين عليها . وقد أسفر التحقيق عن إدانة بعض الموظفين . فتقدم وزير المعارف إلى مجلس قيادة الثورة طالبا إنهاء خدمة مدير دار الكتب . ولكن الذى حدث أن المدير ظل فى وظيفته ، وقررت الحكومة إغلاق باب التطهير ، وذكرت أنها تجاوزت عن فصل الموظفين الذين فى الدرجة الرابعة فما دونها .

وفى سنة ١٩٥٤ فتحت باب التطهير للمرة الثانية ، فإذا الموظفون الذين وقفوا على المذكرة الأولى قد أنهيت خدمتهم بحجة ضعف الإنتاج . وقد جاء فى قرار فصلى أنه لاحق لى فى المطالبة بتعويض أو معاش .

ولم أكن طول مدة خدمتى بدار الكتب (١٩٤٧ — ١٩٥٤) قد نشرت سوى كتاب واحد هو « الحروب الصليبية وأثرها فى الأدب العربى فى مصر والشام » أما «أثر التشيع فى الأدب العربى» الذى نشرته فى أوائل سنة ١٩٤٧ فقد ألفتة قبل أن ألتحق بخدمة الحكومة .

وبعد أن فصلت من وظيفتى انقطعت انقطاعا تاما لإشباع هوايتى فى القراءة والكتابة . ونشرت مؤلفاتى الآتية : دروس فى تاريخ الإسلام . عين اليقين فى سيرة سيد المرسلين . المستطرف من الآداب والحكم المأثورة . فى ربوع الأزبكية . فصول ممتعة . الأدب القبطى قديما وحديثا . السلطان

حسين كامل . طه حسين الشاعر الكاتب . هذا عدا مؤلفات أخرى فى موضوعات طريفة أرجو أن أتمكن من إظهارها قريباً .

وصنفت فى النحو الكتب الآتية ، وقد طبعها شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبي ، وهى : التفصيل فى شرح وإعراب شواهد ابن عقيل مع تحقيق النص وضبطه . الإفادة من حاشيتى الأمير وعبادة على شرح شذور الذهب لابن هشام ، مع تحقيق النص وشرح الشواهد وإعرابها . وشرح الأشموني على ألفية ابن مالك ، تحقيق النص وشرح الشواهد وإعرابها .

وحققت المخطوطات الآتية وضبطتها وشرحت غامضها ، وكلها مطبوعة ومتداولة وهى : ديوان البوصيرى . ديوان ابن زيدون . المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهاني . إغائة اللفغان فى مصايد الشيطان لابن قيم الجوزية الملل والنحل للشهرستاني . الذيل على الملل والنحل وهو من تأليفي . المختار من الشعر الجاهلي للأعلم الشنتمري ، الجزء الثاني . طيف الخيال للشريف المرتضى ، إعجاز القرآن للباقلاني ، ومعه النكت فى إعجاز القرآن للرمانى .

* * *

ولم يكن قصدى من الاشتغال بالتأليف أن أحصل على شهرة أدبية أو مكسب مادي ، أو أظفر بنشان أو وسام ، أو جائزة تشجيعية أو تقديرية أو منحة دراسية ، أو ينهض عضو فى المجلس الأعلى للآداب والفنون ليرثيني بكلمة ، أو يصدر قرار باطلاق اسمي على مدرسة أو شارع ، أو يبعث أحد الكبراء برقية عزاء فى ، أو يرسل من قبله مندوباً يسير وراء نعشي . فهذه الأمور كلها لا تساوى فى نظري جناح بعوضة ، ولم أستهدف شيئاً منها حين بدأت عملي كمؤلف .

وما ينقضى عجبى من قوم قد ابيضت نواصيهم ، وأضحوا على حافة القبر ، وتوفرت لديهم أسباب الحياة الطيبة ومع ذلك فلا ينفكون يجرؤون من هنا وهناك ، يقبلون الأيدى ويبوسون النعال ليظفروا بشيء من حطام الدنيا . فاذا حصلوا على عمل أشاعوا في مجالسهم أن الوزير أو المدير الفلانى أرسل إليهم ورجاهم وألح في الرجاء ليوافقوا على القيام بهذا العمل ، فلم تسعهم المخالفة .

هؤلاء هم البلاء الأكبر ، والسوس الذى ينخر فى عظام المجتمع ، والقدوة السيئة .

* * *

وإذن فأنا أخرج الكتب إشباعاً لشهوة نفسية عارمة . وما كتاب طه حسين الشاعر الكاتب « إلا حلقة فى سلسلة .

وقد درست فى هذا الكتاب طه حسين إبان حياته الأدبية الأولى حين كان فتى فقيراً ضريراً لا يملك من حطام الدنيا شيئاً ، ولكنه يملك نفساً كبيرة ، وآمالاً عريضة ، وطموحاً لا يقف عند حد ولا ينتهى إلى غاية .

وأنت إذا استعرضت نتاجه الغزير فى تلك الفترة من حياته فانك لا تستطيع أن تخفى دهشتك حين ترى أن هذا الشاب الضريع قد انصرف بكليته فى هذه السن المبكرة إلى القراءة والكتابة . ففى كل يوم يطالع الناس بمقال أو قصيدة تدل على تمكنه من اللغة ، وجودة فهمه للأدب القديم وصبره على الدرس ، ومواظبته على الحفظ . لا يكل ولا يمل ، ولا يتعب ولا يسأم . .

وهو شاعر وكاتب ، وخطيب ومحاضر ، وناقد أدبى ، وباحث اجتماعى يتناول المجتمع بالنقد ويرشده إلى عيوبه . ويخوض معركة الحجاب والسفور ، وينتصر لحركة تحرير المرأة ، ويدعو مع الداعين إلى تعليمها .

تتاج أدبي غزير لشاب ضرير في العشرين من عمره . فعسى أن ينتفع القراء
بهذا الكتاب ، والله للموفق للصواب ؟

محمد سيد كبداني

القاهرة في أول أكتوبر سنة ١٩٦٣

طه حسين الشاعر

بدأ طه حسين المولود بمغاغة سنة ١٨٨٩ حياته الأدبية شاعراً لا كاتباً .
 فلهج بالشعر وهو صبي . وكان الدافع له على ذلك وفاة أخيه في وباء
 الكوليرا في صيف سنة ١٩٠٢ وقد ذكر ذلك في الجزء الأول من كتاب
 الأيام ، فقال إنه كان ينفق وقتاً طويلاً في نظم القصائد يرثى بها أخاه ، ويختتم
 كل قصيدة بالصلاة على النبي ، واهباً ثواب هذه الصلاة إلى أخيه . ولم يدون
 هذا الشعر ، فلذلك لا نعرف عنه شيئاً .

ولما جاء إلى القاهرة ظل ينظم القصائد من حين إلى حين . وقد حدث
 ذات مرة أن الشيخ المرصفي كلف تلاميذه في الأزهر بالكتابة في موضوع
 من الموضوعات شعراً ونثراً . قال أحمد حسن الزيات ، مدرس الأدب العربي
 بمدرسة الفرير بالقاهرة إذ ذاك ، من خطبة ألقاها^(١) في حفل تكريم
 طه حسين بمناسبة حصوله على درجة الدكتوراه من الجامعة المصرية سنة
 ١٩١٤ مانصه :

« . . . فأخذنا نعمل موقنين أن الفتى — يعنى طه حسين — لن يبرزنا
 في نثر الكلام ونظمه ، وإن بزنا في حفظه وفهمه . ولكن ماذا تقولون
 وقد غدا على الشيخ بقصيدة حماسية الموضوع ، جاهلية الأسلوب ، تمثل
 ما انطبع في خاطره من صور الشعر القديم ؟ »

« سمعنا تلك القصيدة فازدرينا أنفسنا ، وسترنا ما قلنا ، وشعرنا بالضعف

أمام تلك القوة النادرة . فأحلمناه مناحل الإنسان من العين ، والسواد من القلب . ومضينا على أثره نخوض بحور الشعر ، فتارة نطفو وأخرى نرسب . وهو في السباحة ماهر ، وبالطريق خير » .

وهذه القصيدة التي حدثنا عنها الزيات قد ضاعت ، لأن الشاعر لم يكن متصلا بالصحف آنذاك .

وأول قصيدة نشرها^(١) كانت في رثاء حسن باشا عبد الرزاق سنة ١٩٠٨ ومطلعها :

أفى الحق ما أسمعتنا أم توها تبين فقد بدلت أدمعنا دما

كان لورد كرومر قد وضع خطة لمقاومة الحركة الوطنية التي تزعمها مصطفى كامل . فأوعز إلى بعض المقربين لديه بإنشاء حزب يقف في وجه الحزب الوطنى . فطوع حسن باشا عبد الرزاق للقيام بهذه المهمة . وبذلك ظهر حزب الأمة واتخذ شعاره الاعتدال في المطالب الوطنية ، أى الموافقة على بقاء الاحتلال . واشترك أعضاء هذا الحزب في الحفلة التي أقيمت لوداع كرومر سنة ١٩٠٧ ، وكان الحزب الوطنى قد دعا إلى مقاطعتها . فكتب أحمد لطفى السيد في « الجريدة » مقالا تحت عنوان « المسألة لا المعاندة - وداع اللورد كرومر » جاء فيه^(٢) :

« . . . لأن الجرائد الملقبة بالوطنية على اختلاف نزعاتها أخذت تأمر الناس أن لا يعترفوا للورد كرومر بحسنة مطلقا . فلا يزورونه كما كانوا ، ولا يودعونه كما يجب على المقيم للسافر . وأن يجتمعوا على أفواههم بخاتم الخوف من التعبير والتشهير ، فلا ينطقوا إلا بما يرضى تلك الجرائد من

(٢) الجريدة في ٣٠ / ٤ / ١٩٠٧

(١) الجريدة في ١ / ١ / ١٩٠٨

ألفاظ معاداة اللورد المسافر وقومه المقيمين . وبالجمله فانه يفهم من قولها
إننا قطعنا العلاقات بيننا وبين الانجليز .

« وإننا تلقاء ذلك لا نتخلو سياستنا مع الإنجليز من أحد وصفين :
إما سياسة معاندة وعداء ، أو سياسة مسالمة لا استسلام . وقد علم العقلاء
وجربوا أن سياسة المعاندة من بضع عشرة سنة قد جرت بنا من الوجهة
الإدارية والسياسية إلى هذه الحالة التي نألم لها جميعا كل الألم ، والتي لم يبق
معها لنا من إدارة بلادنا إلا محض تنفيذ أوامر الاحتلال في كبير المسائل
وصغيرها . ولا شك في أن هذه السياسة ، سياسة المعاندة ، عقيمة . إذ كيف
يقبل المعاند من المعاند حسابا على أعماله ؟ بل كيف يرجو العدو من العدو إصلاحا
لحاله ؟ أما والله إننا على هذا المذهب لا يمكن أن نتقدم في مدارج الرقي الأدبي
والسياسي شبرا مادام الحال على ما نرى من التقاطع وسوء التفاهم من الجانبين .
فلم يبق إلا سياسة المسالمة والمحاسنة . ومن هذا النوع يكون اهتمام العقلاء
بوداع لورد كرومر . »

« إن قاعدة سياستها - يعني الأمة المصرية - مع المحتلين هو المحاسنة
دون المعاداة . وإن معاداة القوى بوار ونقص من العلم بالمصلحة . وإن
المظاهرة ضد اللورد كرومر ظهور بالعداء ونكران الجميل في وجه الأمة
المحتلة دون جدوى . »

« وبذلك يكون الواجب عليها - يعني الأمة المصرية - ألا تمتنع من
الاحتفال بوداع اللورد كرومر ، وأن تقوم بالمجاملة السياسية الواجبة بين
الأمتين المرتبطتين اقتداء بسمو الأمير . »

هذه فكرة عابرة عن حزب الأمة وسياسته وأهدافه . وقد انضم
طه حسين إلى هذا الحزب واعتنق آراءه . وحينما توفي رئيسه حسن باشا
عبد الرازق رثاه بقصيدة طويلة عرض فيها بالحزب الوطني تعريضا شديداً .

وكان خصوم مصطفى كامل يطلقون على حزبه اسم «حزب الطيش» ويصفون
الرعيم الشاب بالفتى الطائش . وها هو طه حسين يردد هذه المزاعم الفاسدة
فيقول .

رماه الردى من ود أن بلاده تكون لأهل الغرب نهبا مقسما
ومن يدعى بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أننى تيمما

والبيت الأول ذر للرماد فى العيون ، إذ لا يكفى أن ينفى الإنسان عن
نفسه تهمة الميل إلى المحتلين وهو غارق فيها إلى أذنيه . والبيت الثانى هجاء
صريح للحزب الوطنى . فهو حزب الطيش والضلال ، لا يريد مصلحة الوطن ،
وإنما هى أغراض ذاتية تحرك أعضائه وتسيرهم . وهذا ما كان الانجليز يقولونه .
فكأن طه حسين جعل من نفسه بوقا للمحتلين .

وجاء فى القصيدة المتقدمة :

رعى الله مصرا إذ تداعت حماها وأضحى بنوها للنيبة مغما
هوى كوكب كانت به مصر تهتدى إذا مادجا ليل الخطوب وأظلاما

فطه حسين يقول إن حسن عبد الرازق كان من حماة مصر وأبطالها
المدافعين عنها . وكان كوكبا تسير البلاد على هداه إذا تراكت عليها الحوادث
والخطوب . فباليت شعرى أين كان طه حسين وزعيمه يوم فظائع دنشواى؟
ومنها :

مضى «حسن» عنا وخلف لوعة . تزيد على مر الليالى تضرما
وما الصبر عمن فاق فى الجود حاتما وفى بأسه عمرا وفى رأى أكتما
فقد كان فياض اليدىن سميدا إذا بنخل المثرون أعطى فأنعما

أما أن حسن عبد الرازق قد خلف لوعة فى قلوب المصريين ، فهذا غير
صحيح وإنما هو الكذب الصريح . وأما أنه كان مقداما وبطلا مغوارا فهذا

مالا دليل عليه ، إلا أن يكون الشاعر قد عنى إقدام حسن عبد الرازق على محاربة الأمانى القومية ومناصرة الاحتلال . إن أراد ذلك فنحن نسلم له بصحة ما يقول . وأما أن حسن عبد الرازق كان كريما بحيث إنه فاق حاتمًا في الجود ، فهذا أمر لا قيمة له عندنا .

ومنها :

مائس م الأشياء لأنس وقفة له ألفت في مصر حزبا منظما
ولا خطبة يبقى على الدهر ذكرها أبانت لنا رأيا سديدا مقوما
فأى وقفة هذه التى وقفها حسن عبد الرازق وترتب عليها إنشاء حزب منظم ؟ لقد ذكرنا أن لورد كرومر هو الذى أوعز إلى بعض المقربين لديه بإنشاء حزب يعارض الحزب الوطنى . أما خطبة حسن عبد الرازق التى يقول طه حسين إن ذكرها سيبقى على الدهر فقد كانت تدعو إلى مسالمة الإنجليز وتحض المصريين على عدم الانقياد للحزب الوطنى .

وكانت النتيجة الطبيعية لموقف طه حسين السياسى فى هذه الفترة أنه أغفل موت الزعيم الوطنى مصطفى كامل إغفالا تاما ، فلم يقل فى رثائه شيئا ، لاشعرا ولا نثرا . إن موت مصطفى كامل الذى هز البلاد من أقصاها إلى أدناها ، وأبكى المصريين أجمعين لم يحرك خاطر طه حسين بكلمة واحدة !

ذكرنا أن لورد كرومر هو الذى أوعز بإنشاء حزب الأمة . فلما رحل عن البلاد وخلفه السير الدون جورست نهج فى سياسته نهجا جديدا ، كانت نتيجته ما عرف عند المؤرخين بسياسة الوفاق بين الخديو عباس وسلطات الاحتلال . وبذلك فقد حزب الأمة أهميته وتفرق أعضاؤه بعد أن تبخرت آمالهم فى الوصول إلى مقاعد الحكم . فانضم طه حسين إلى صفوف الحزب الوطنى ، وأغراه بذلك ما كانت تتمتع به صحف هذا الحزب من الرواج

وسعة الانتشار . فالكتابة في هذه الصحف تضمن له الشهرة التي كان يتوق إليها منذ صباه . وقد كان مخلصا في انضمامه إلى الحزب الوطني ، وظل متمسكا بمبادئ هذا الحزب حتى رحيله إلى أوروبا سنة ١٩١٤

وأول ما نظم في تلك المرحلة قصيدته التي^(١) هنا بها عبد العزيز جاويش بمناسبة خروجه من السجن سنة ١٩٠٩ ومطلعها :

الآن حق لك الثناء فلتحي وليحي اللواء
ولتحي مصر وأهلها شاء العدى أولم يشاءوا
ومنها :

إن كان ذكرك للجللاء يسوء فليكن الجلاء
أو كان صوت الشعب عند دهمو هو الداء العياء

فليعل صوت الشعب حتى يرجعوا من حيث جاءوا
ومن الإنصاف أن نقول إنها قصيدة جيدة ، فيها روح طيبة ، وتمتاز
بالسهولة والقوة ، وفيها هجوم على المحتلين ، وتحريض للمصريين على مواصلة
الكفاح والجهاد . وكان عبد العزيز جاويش قد حبس بسبب مقال نشره
في اللواء احتوى على طعن شديد في بطرس غالى رئيس الوزراء إذ ذاك ،
وذلك بمناسبة الذكرى السنوية لفظائع دنشواي ، وكان بطرس غالى رئيس
المحكمة المخصوصة . كما أن عبد العزيز جاويش حمل حملة عنيفة على فتحى
زغلول الذى كان عضوا بهذه المحكمة .

* * *

وكان انضمام طه حسين إلى الحزب الوطنى عاملا هاما فى شعره السياسى .
فنزل إلى صفوف الشعب ، وشرع ينطق بلسانه ، ويمبر عن آماله وأمانيه فى

الحياة النيابية ، وفي الاستقلال ، وفي طلب الجلاء العاجل . مثال ذلك قصيدته التي نشرها^(١) سنة ١٩٠٩ تحت عنوان « هم جائش » وذلك حينما عرضت حكومة بطرس غالى على مجلس الشورى مشروع مد امتياز شركة قناة السويس ، ومطلعها :

تيمموا غير وادى النيل وانتجمعوا فليس في مصر للأطماع متسع
كفوا مطامعكم عنا ، أليس لكم مما جنتيم وما تجنونه شبع ؟
والخطاب هنا للإنجليز . وقد ألقى تبعة ماحل بالبلاد من مصائب الاحتلال البريطانى على عاتق المصريين ، فاتهمهم بالاستكانة والخنوع ، وذلك في قوله :

الذنب ذنب بنى مصر فانهمو هو الذين إذا ما استخضعوا خضعوا
هو الذين استبدت في حقوقهمو يد الدخيل فما ذادوا ولا منعوا
هو الذين يقول الناس إنهمو إن صادفوا ملهيا عن جوعهم قنعوا
وهذا غير صحيح ، فالشعب المصرى لم يغفل عن حقوقه قط . وما إن ظهر مصطفى كامل حتى التف المصريون حوله ، ولم يشذ عن ذلك إلا حفنة من الخونة .

ومن قصائده السياسية تلك التي نشرها سنة ١٩١٠ تحت عنوان « رجاء الدستور بعد الحج المبرور » هنا بها الخديو عباس بعد عودته من أداء فريضة الحج . ورجاه أن يمنح البلاد الحكم النيابى ، وقال إن الله يرضى عن الخديو إذا هو أرضى مصر باعلان الدستور . وقد كرر هذا المعنى في أبيات كثيرة . ثم ختمها بتوجيه الخطاب إلى المصريين داعيا إياهم إلى الجد في طلب معالى الأمور ، وترك الكسل والحوول ، وذكرهم بمجدهم القديم وعزم السالف . وحرضهم على المطالبة بالدستور ، والعمل على إجلاء المستعمر . قال مخاطبا الخديو :^(٢)

أنت والدستور في الحُب لديها أخوان
وترى حجبك باليمن لها نعم البشير
كن لوادى النيل حصنا من عوادي الحداث
وامنح الدستور مصرا أنت لوشتت قدیر
ومن قصائده السياسية الرائعة تلك التى ألقاها فى الاحتفال بالعام
الهجرى ١٣٢٩ ومطلعها :

كن أنت بعد أخيك خير هلال وأضىء لمصر سبيل الاستقلال^(١)
وقد حذا فيها حذو حافظ إبراهيم فى قصائده التى كان ينظمها فى مطلع
العام الهجرى ويستعرض فيها الأحداث الكبرى التى تقع فى العالم الإسلامى
بنوع عام ، وفى مصر بنوع خاص . قال :

أشرق وحدث مصر عن آمالها ماذا صنعت بهذه الآمال ؟
أصدق فيك الظنون وناظر للنيل نظرة مانح وصّال ؟
ومبدد عن مصر بعض همومها فلقد أضربها أخوك الخال
أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها من ريهن بوابل هطّال
الخ...

ثم تناول موضوع المرأة وماتلاقيه من إهمال ، وقال إن الأمة لا ترقى
إلا إذا غنيت بتعليم الأمهات :

نرجو الرقى ، وكيف ترقى أمة سلكت سبيل التيه والإضلال ؟
عبثت بحق الأمهات وأغفلت أمر الأمومة أيما إغفال
ساد الذين عنوا بأمر نساءهم وسمّوا بهن إلى مكان على

ثم نعى على الأغنياء إهمالهم أمر الفقراء وتقاعدهم عن مديد المعونة

إليهم في الوقت الذي ينفقون فيه الأموال الطائلة بين الكاس والطاس والنساء ، أو في شراء الأوسمة والنياشين . قال :

أننى تكون الصالحات لأمة رغب الغنى بها عن الإفضال
يجبى يميناه النضار ولم يكد حتى يجود على الخنا بشمال
ماذا يفيد وسام صاحبنا إذا سبقت إلى الحسنى يد الجمال؟

* * *

ويلاحظ أن طه حسين في قصائده السياسية لم يكن متطرفاً يدعو إلى الثورة ويستعذب الموت في سبيل الوطن ، بل كانت دعوته سلمية . قال :

اطلبوا الدستور يا قومى ونادوا بالجللاء
والزموا السلم فان النصر للحق المبين
فهو يدعو المصريين إلى المطالبة بالدستور والجللاء ، ثم ينصحهم بأن يركنوا إلى السلم لأن الحق لا بد أن ينتصر . وهذه دعوى إلى الجهاد السلمى . وقال مخاطباً رئيس الوزراء بطرس غالى :

قل للوزارة إن الحق أسمعكم والحق أفضل ما يقضى ويتبع
فان قصدتم فكم حمد زرده وإن تجوروا فان الله مطلع
فهو يقول لبطرس غالى إن عدلتم حمدناكم حمداً كثيراً ، وإن ظلمتم وكلنا أمركم إلى الله ، وهذا كل ما يفعله ، فلا ثورة ولا تهديد بالثورة .

والحق إن شعر طه حسين السياسى يدل على نفسية مضطربة ، فقد كان طالباً في الجامعة ، ومن المؤكد أنه خشى أن يتهم بالتحريض على الثورة فيفصل من الجامعة ، أو يحدث له ما حدث لعبد العزيز جاویش . وظروفه الخاصة لا تساعده على احتمال السجن . وقد وضع هذه المخاوف في قوله :

إنى لا أكتمك الحديث تحفظاً وأرى السكوت على الأذى أولى لى
فلقد تكون قصيدتى كوسيلة بينى وبين السجن والأغلال

فهو يصبر على الضيم ويرضى بالذل والهوان خوفاً من السجن ومتاعبه .
وقد كف عن نظم الشعر السياسى منذ نهاية عام ١٩١٠

* * *

ومن أغراض الشعر التى تناولها طه حسين القول فى الغزل والحب . وكان ميالا إلى الغناء ، يطرب لسماعه ، ويكثر من التردد على أمكنته . وقد نشر سنة ١٩١١ مقالا تحت عنوان (١) « الذوق والجمهور » جاء فيه :

« كنت منذ أيام فى ملهى من الملاحى العامة التى يجب أن تتخذ مثالا صادقا لذوق الجمهور وقد يكون هذا التصريح خطراً جداً ، فان الجمهور لا يقبل من كاتب مثلى أن يزج نفسه بين صفوفه فى المراقص وأندية الغناء ، بل إن أسرتى نفسها قد تنكر على ذلك أشد الإنكار ، لأنها لا ترضى منى إلا أن أسلك سبيلا واحداً ؛ هو ما بين البيت والمدرسة . وقد ألوم نفسى أيضاً على ذلك ، بل قد لمتها من غير شك أشد اللوم ، وأبنتها أشد التأنيب . ولكنى أستطيع القراء والمنكرين على معذرة من أن أقول إننى لم أقصد إلى ذلك الملهى وأنا أعتقد أنى مخطئ ، وإنما قصدت ، إليه وأنا أعتقد أنى مصيب . وليس هذا بعجيب ، فان ما منحناه من قوة الخيال كان كافيا كل الكفاية لتضليل أنفسنا ، وتمثيل الأهواء الفاسدة لنا فى صورة المقاصد النافعة . »

« فتاة من الآنسات جلست توقع أنعاما من الموسيقى ، وجاعات من الناس على اختلاف طبقاتهم قد جلسوا يسمعون ، وفتيات من المتحسنيات يذهبن ويبحثن ، سابييات للعقول ، خالبات للألباب ، لاعبات بالقلوب ،

حاثثات بالنفوس . وبين هذا وذاك شاب قد استخفه الطرب ، وغلى برأسه الشراب ، فوثب وثبة المزعج ، وصاح بملىء فيه : فليحى العدل . تلك هى المضحكات وإن كانت فى نفسها مؤلمة ، لأنها لا تدل إلا على الفساد فى ذوق هذا الشاب ، وفى ذوق الجمهور الذى قابل منه ذلك النداء بالإعجاب والابتهاج .

« تسىء المغنية توقيع النغم ، وينحرف صوتها عن طريقه ، فيحدث فيه شىء من الاهتزاز والاضطراب يكون مصدرا لجنون الجمهور وإغراقه فى الصياح والتصفيق . وهو فى الوقت نفسه دليل واضح على أن القوم لم يجيئوا للغناء ، وإنما جاءوا لكل ما يستفز الشهوة ، ويستثير العواطف الكاذبة . أو أنهم لا يرون الغناء إلا أشبه شىء بما يتخذ على المائدة من الألوان التى تحرك شهية النفس للطعام »

وتردد طه حسين على أمكنة الرقص ومحال الغناء قد أثر فى شعره إلى حد بعيد ، فنظم قصائد تظهر عليها مسحة الشعر الغنائى العذب الرقيق . مثال ذلك ما نشره تحت عنوان « آه لو عدل »

وهو :

شادن	عطف	عطفه الحبيب
بعد أن صدف	صدفه الملول	
كم سبى العقول	قوله الخلوب	
يملك القلوب	ثم لا ينيل	

فأنت ترى شعراً غنائياً جميلاً ينبعث به صوت حنون ، نكاد نرقص منه طرباً . وكأن الشاعر قد ظهر أمامنا ممسكاً بقيثاره ليحرك عواطفنا ، ويهز مشاعرنا ويملك قلوبنا بهذه الأنغام العذبة الحلوة .

وشعره الغزلى يمثل نفسية مضطربة ، ليست مستقرة على حال واحدة .
فهو تارة يقول إن العشق رسول الفسق وداعية الضلال . وقد كتب سنة
١٩١٠ مقالا^(١) تحت عنوان « الحب » جاء فيه :

« مصدره — يعنى الحب — ضعف الإنسان وعجزه منفرداً عن الحياة
الدائمة والسعادة الباقية ، فما أعانته من الحب على هذا الغرض فهو حق .
وما زاد على ذلك فهو باطل لا خير فيه »

« حاجتنا كثيرة متنوعة ، وما ربنا مختلفة شتى ، لا يستطيع الفرد
أن يقوم بها . فنحن مضطرون إلى الاجتماع ، والاجتماع قوامه الحب
الصحيح » .

« حياتنا الدائمة رهينة بالتناسل ، وسعادتنا الباقية موقوفة على التعاون .
فنحن فى حاجة إلى القرنين الصالح والصادق المخلص »

« لا أعرف غير هذه الشؤون مصادر للحب ، ولا أضرب مع الشعراء
وكتاب الخيال بسهم فيما ذهبوا إليه من فنون الغرام . فانهم
لم يقصدوا بنا إلا إلى فساد الأخلاق وضعف النفوس . أعانهم الوهم ، وأسعدهم
الخيال ، واستحثتهم الشهوات الكاذبة ، فاتخذوا لنا من حسان الفتيان
والفتيات آلهة أخذونا بعبادتهم من دون الله ، وزعموا أن مصدر هذا كله
حب الجمال »

« لا أخفى على الناس أن فى طبيعتنا شغفاً بالجمال ، وميلاً إلى الحسن ،
لكن إذا غلت نفوسنا فى هذا الميل وذلك الشغف ، لم يكن غلوها إلا مرضاً
يجب أن نداويه ونطب له . والحق أقول إننا قد بلغنا من الغلو فى ذلك مبلغاً
لا يسعنا الصبر عليه . فقد أصبح حب الجمال سبيلاً إلى الغى ، وداعية
إلى الفسوق »

وقد ساق هذه الأفكار في بعض قصائده ، فن ذلك قوله :

ياشنى الله من القس ق نفوس العاشقين
أنا للعذال فى العش ق إذا شاءوا فداء
إنما العشق رسول القس ق يدعو الجاهلين
سيقولون بذى ليس فى الحق بذاء

ولكنه فى شعر آخر يعطينا صورة تختلف عن الصورة المتقدمة .
فيقول مثلاً فى قصيدة نشرت سنة ١٩٠٩ تحت عنوان ^(١) « الفجور
بعد العفة »

لقد بلوت الفرام غيراً فكم بالآلامه ابتلانى
كم حمد الغيد من بلائى مذ كان لى بالهوى يدان
تحكم الغيد فى دهرأ ثم انثنى عنهمو عنانى
لا أكذب الله إن عاما مضى حثيثاً بلا توانى
إذا ذكرته استهلت دموع عيني كالجنان
أرضيت بالطيبات نفسى فى غير إثم ولا افتنان
ما أخذ الكاتبان سوءاً يزودنى عن ربى الجنان
ان كان فى قبلة جناح فانى منه فى أمان
لم أستبح نيلها فجورا بل قال بالحل مفتيان
قد نلتها واستزدت منها لو بعض مانلته كفانى

يقول فى هذه الأبيات إن الحب قد أصابه منذ صغره بالآلام . وأن
الحسان قد استولين على مشاعره ، وملكن عليه لبه وشغلن عقله ، وتحكمن
فيه بعد أن أمسكن بزمامه . ويقول إنه أراضى نفسه بالعناق والتقبيل ،

وأنه لا ذنب عليه في ذلك ولا خوف من عقاب الله لأن بعض الفقهاء أفتى
بجواز التقبيل . وقد ذكر أن حبيبته هذه قد ماتت ، وتمنى لو أنه مات
قبلها ، قال :

ثم طوى الدهر ذاك عنا ليت الردى قبلها طوائى
وأخبرنا أنه هجر الحب عقب وفاة حبيبته ، وأخلا قلبه منه وتركه لأبناء
الأغنياء الذين قعدت بهم همهم عن طلب معالي الأمور ، ورضوا بحياة الذل
والهوان التي يجلبها لهم الغرام . قال :

رأيت أن الهوى سيلقى نفسى فى هوة الهوان
فقلت للقلب عدّ عنه ودعه للمترف الجنان

ويذكر فى قصيدة أخرى أن قلبه لا يمكن أن يخلو من الحب ، ويقول
إنه يهيم بالحسن ويمشق الجمال إلى درجة الجنون ، ويكره من المحبوب أن
يصد عنه ويهجره ، وإنما يميل دائماً إلى وصاله والالتقاء به . قال :

حاش لله أن أكون خلياً من هوى الغيد أو غرام الغوائى
أنا أصبو إلى الغرام ولا يعرف فى الجنون بالحسن ثانى
لأحب الهوى إذا اعترضته شائبات الصدود والهجران

ويقول فى قصيدة أخرى :

أنا لولا سوء حظى لم أكن إلا ابن هانى
أى أنه لو كان مبصر السار سيرة أبى نواس فى الخلاعة والمجون ،
والتهتك والعريضة ، والإقبال على الحر ، والتمتع بالذات الحيوانية الطبيعية
والشاذة ، ولكن سوء حظه بتلك الآفة هو الذى حال بينه وبين تحقيق
ما تصبو إليه نفسه .

وله شعر يظهر فيه كأحد رجال الدين ، فتراه يعظ ويرشد ، ويحض على التمسك بأهداب الفضيلة . ويعزو ما أصاب مصر من المحن إلى ترك أحكام الشرع الشريف ، والاحتكام إلى قوانين من وضع البشر . قال من قصيدة تحت عنوان « حديث ^(١) مع النيل » .

ظلم القائمون بالأمر في الناس وأغواهمو ضلال وزور
زعموا أن شرعهم يكفل الخير والله سنة قد تجور
وهم ساقه الغرور إليهم ومن الناس جاهل مغرور
ندع الكافرين بالله لكن هل لدى المسلمين منا عذير ؟
أيها الناس أين علمكم القا صر من عالم عداه القصور
نسيت مصر دينها فعداها كل خير وجللتها الشرور
ويرى أن أمور البلاد لا يمكن أن تنصلح إلا بالرجوع إلى الله ، وأن العدل لا يسود إلا في ظل القرآن والسنة .

ثم استطرد فقال إن دراسة آداب فلتير وفيكتور هيغو تغنى عن دراسة سائر الآداب .

حسبكم في الآداب ما قال فل تير أو ما أتى به فيكتور
فخذوا من كليهما بنصيب وتوخوا هداها تستنبروا
وقد كان طه حسين حينما نظم هذه القصيدة يحاول تعلم اللغة الفرنسية .
وأكبر الظن أنه لم يكن قد ألم بشيء من الأدب الفرنسى ، ولكنه ذكر هذين الاسمين ليظهر للناس أنه قد استوعب هذا الأدب ، واقتنع بأن آداب فلتير وهيغو فيها الكفاية ، فلا حاجة إلى أن يجهد الإنسان نفسه في دراسة شيء آخر . وهذه القصيدة ضعيفة الأسلوب ، واهية التراكيب في بعض أجزائها .

ولم يثبت طه حسين على هذه الآراء ، بل كان مضطربا بين الإيمان والكفر . وقد كتب مقالا تحت عنوان « ويحيى ^(١) من غد » جاء فيه :
« تغرب شمس اليوم وإن عيوننا كثيرة لتلاحظها لحظ المشفق الأسف ،
أو الشيق الكلف .

هذا يقول لها اعجلى لا تبطئي ويقول ذاك لها اذهبي لا ترجعي
كلاهما يود لو أن في يده أن يدبر الفلك أو يوقفه . إذن لاستطاع هذا
ألا يعمل الليل إلا ريثما يتبلغ بشيء من زاده . أو لاستطاع ذاك أن يجعل
دهر الناس ليلا قائما إن فاته أن يجعله نهارا دائما . وبين هذا وذاك شباب
يترنحون ثملين ، قد أوقفوا أنفسهم موقف الساخر منها ، وكلهم ينشد :
بالليل طـل أو لا تطل إني على الحالين مفطر

هذا لسان فريق ، وتلك آمال فريق . ففنا المسارعون إلى الخيرات ،
والجاحدون لأمر ربهم ، والذين يدينون لله وهم كارهون . غير أن الفلك
برغم ذلك أخذ مداره لا أُلَيَّا ^(٢) ولا حثيثا ^(٣) . والكواكب على الكره
منه آخذة مجراها كما هي الآن . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر .
ولا الليل سابق النهار ، وكل في فلك يسبحون . فلم تكن هذه الأقوال
والآمال لتنقص من طول الليل أو تزيد فيه ، ولكن منها ما يكفر الآوزار ،
ومنها ما يضاعف السيئات . فستطلع علينا شمس الغد لا محالة ونحن بين رجلين :
مذعن لأمر ربه ، وخارج عليه . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فقلوبهم
خاشعة لربهم ، وأفواههم ملجمة إلا عن ذكره ، ناطقة إلا بلفظ الحديث .
وأما الجاحدون لأمر ربهم فغفرون يتبعون أئمة من شياطين الإنس ، يتهجون
بهم مناهج الغي . قد ضربوا في الفلسفة حتى خرجوا منها أصفار الأكف ،
خفاف العياب ^(٤) . وإذا سألت أحدهم : ما خطبك ؟ أهذر وأهجر ، وتشدق

(١) مصر الفتاة في ١٥/٩/١٩٠٩ (٢) أليا : مبظنا (٣) حثيثا : مسرعا (٤) العياب جمع عيبة وهي زبيل يتخذ من الجلد ، وكل ما توضع فيه الثياب .

وتفهيق . لاتأخذه رهبة من الله ، ولا يردعه حياء من نفسه ، بل هو فوق ذلك كله ، اللهم ! لا لفظ الطبيعة وعشاقها من الفرنجة ، وما نعلمهم جميعا إلا مهذرين .
 « ليس بدعا من أعمال الناس أن يزرع الإنسان نفسه عن الطعام والشراب ساعات معدودات . فكثيرا ما يضطر إلى شيء من ذلك ، وإنما المشقة كل للمشقة في أن تؤدي به حقا لله ، أو تقضى به له واجبا »

« لهذا نبغض الصوم ونمله . ولن أنسى شبابا جلست بينهم في رمضان الفارط فألشدتهم قول صديق مستهتر :

لو أن لي في الناس حكما نافذا ألزمت بالإفطار كل الناس
 فما هي إلا أن أذعنوا لحكمه وحملوني إثم الدال على الشر »

« ضعف في الإيمان ، وتزعزع في العقيدة . ولو أن هناك يقينا صادقا ، أو قلبا مطمئنة لكان عليها الإذعان لله ، والقيام بحقوقه ، وإنها الكبيرة إلا على الخاشعين . ليصم من شاء وليفطر من شاء ، فلسنا من أمرهم في شيء ، إنما أمر ذلك إلى الله ، يعذب من يشاء ، ويغفر إن شاء ، ولكن أقبل أيها الشهر الكريم فستلقاك وجوه باسمة ، وصدور رحة . ولئن كنت موسم نسك لقوم ، فانك موسم لهو لآخرين . وأين نحن من أرجوزة أبي نواس :

إذا مضى من رمضان النصف حل لنا اللهو والقصف
 أقبل وحسبك منا أن نصوم نهارك ، ونلهو ليلك في غير فسق ، ولكن على ألا ترجع بنا إلى عهد ابن الرومي منذ أحد عشر قرنا حيث يقول :

شهر الصيام وإن عظمت حرمة شهر ثقيل ببطء الظل والحركة
 أذمه غير وقت فيه أحده من العشاء إلى أن تصدح الديكة

في هذا المقال يبدو بوضوح اضطراب طه وحيرته بين الإيمان بالدين والتمسك بأحكامه ، وبين إنكاره وإهمال تعاليمه . وإلا فما الذي يجعله يفكر في قول ابن الرومي ويختتم به مقالته ؟ وما الذي دفعه إلى ذكر أرجوزة

أبي نواس؟ ومن هو الصديق المستهتر الذى قال « لو أن لى فى الناس حكما نافذا . . . » ألا يمكن أن يكون طه حسين نفسه هو قائل هذا البيت ؟ وإن لم يكن هو قائله فلماذا ينشده ويردده فى المجالس ؟ ولماذا حمل نفسه إثم الدال على الشر ؟

* * *

وكان طه حسين فى هذه المرحلة من حياته يعيل إلى اللهو والمجون ، وقد صرح بذلك فى مقال نشره ^(١) سنة ١٩١٣ تحت عنوان « مولد الحسين » وهذا نصه :

« شهدت احتفال الأمة بمولد الحسين بن على رضى الله عنهما . فأعجبني ما رأيت فى هذا الحفل من تفرغ الجمهور وقتا من أوقاته للهو واللعب . وحرصه على أن ينسى الرزاة والوقار ، ويستريح من آلامها الشاقة يوما من الأيام . فان ذلك مع أنه ضرورى فى حياة الشعب ، فيه مظهر من مظاهر الحياة العقلية فى نفس الجمهور ، يمثلها عارية بريئة مما يسترها فى أوقات الدعة من أستار التصنع والرياء . فيرى الباحث تلك الأ نفس التى كانت قبل هذا الحفل هادئة مطمئنة ، عاكفة على الأعمال ، وقد جادت بمكنوناتها ، وباحت بمخزوناتها ، وأعطت للهو منها حظا ، وللمجون من وقتها نصيبا . »

« فليس للتصنع والرياء فى هذا الحفل مكانهما الذى يخفى عن الباحث نفس الجماعة وما تتصف به من أوصاف الخفة والطيش وحب المجون . وليس لها هذا المكان الذى يخفى عن الباحث ما فى نفس الجمهور من فضيلة ورذيلة وما للشعب من عادات وأخلاق . بل كل هذا كان ظاهرا جليا ليلة الأمس . فكنت ترى الشعب وقد أغرق فى اللعب ، وأسرف فى المجون . فتلاحظ فيه من خفة الروح ، وحسن الدعاية ، ومن لطف النفس ، وبشاشة الوجه ما يملؤك سرورا وإعجابا إن أردت أن تكون مسرورا معجبا . ويفيض عليك فنونا من العلم والحكمة إن أحببت أن تكون عالما حكيما »

« ومع أن هذا الحفل له اسم ديني وصبغة إسلامية في نفس الجمهور ،
فأني لم ألحظ فيه أمس هذا المعنى ، ولم أنظر إليه نظري إلى المحافل الدينية ،
لأنني لو فعلت ذلك لآلمت نفسي من حيث أريد أن أسوق إليها اللذة ،
ولأحزنتها من حيث أحب أن أدخل عليها السرور . فان تلك المظاهر الدينية
التي أظهرها الشعب بالأمس مهما كانت صادرة عن عاطفة دينية صحيحة ، لم
تكن إسلامية بوجه من الوجوه ، وإنما كانت وثنية صرفة . أو مظاهر هو
ومجون كما هو الحق الذي لا شك فيه . وإلا فان حلقات الذكر التي قامت
ليلة الأمس على نقر الدف وصوت المزمار ، رقص وتظفر ما شاء لها المرح
والمجون ، لم تكن إسلامية في يوم من الأيام ، لا سيما إذا كان الغناء الذي
رقص عليه من أغاني النساء في الحانات والمراقص ، كقولهم : الود دا مالو مالو
أو يا بنت يا بيضة وجنتيني ، أو برهوم يا برهوم .

فان هذه الأغاني أدنى إلى اللهو واللعب منها إلى الذكر والتسبيح ، وفي
قصيدة له نشرها سنة ١٩١٠ تحت عنوان « زلة في الحياة » يقول :

صام لله وصلى بعد لهو ومجون
أنكر الخلان منه ميله للحسنات
بعد أن كان له في طلب اللهو فنون
عثره أنقذه الله بها من عثرات

ومن المعروف أن طه حسين ولد سنة ١٨٨٩ ونشر هذه القصيدة سنة
١٩١٠ أي وهو في العام الحادى والعشرين من عمره . وليس من المعقول أن
يكون وهو في هذه السن المبكرة مع ضيق ذات يده ، وإصابته بتلك الآفة
أن يصبح شخصاً صهرته التجارب وحسبته الأيام ، فافتنع بأنه لاخير في

حياة اللهو والمجون . ويذكر في القصيدة المتقدمة أن وقته مقسم بين العمل
الجاد المنتج ، وبين اللهو والعبث . قال :

ساعة عندي للجد	د	وأخرى للغزل
فاذا ملت إلى الجب	د	فقدام أريب
وإذا ملت إلى الحـ	ب	فآب للعدل
هذه جملة أحـ	والى ،	فهل فيها ذنوب ؟

ويقول من قصيدة أخرى :

لم أزل أقصف حتى خلت أنى فى الجنان

» » »

وكان من عادة الشعراء فى ذلك الوقت أن ينظموا فى البؤس والشكوى
من ضيق ذات اليد . وكان إمام العبد يزعم طائفة البؤساء ، وأنشأ حزبا خاصا
بهذه الطائفة فلقب بامام البؤساء . وقد سلك طه حسين هذا المسلك ، وكان
بؤسه من ناحيتين : الناحية المالية ، وناحية آفته . وجاء شعره مصورا لحالته
النفسية المؤلمة . قال من قصيدة تحت عنوان « الفجور بعد العفة » نشرها
سنة ١٩٠٩ .

إذا شكى البؤس كل ندب	فقد نجا منه شاعران
بيننا نعانىه كان شوقى	يقصف فى كرامة ابن هانى
وحافظ فى القطار يلهو	مشرد الهم غير عانى
فليطب الشاعران نفسا	إنا رضينا بما نعانى
مامرنى ساعة كبؤسى	والأدب الغض صاحبان
لقد شئت الصحاب حتى	وددت لو كلهم جفانى

فهو يغبط شوق غناه وتمتعه بما فى الدنيا من أنواع الملذات حلالها وحرامها ويوازن بين هذا الشاعر المترف الغنى الذى يسكن القصور ، وبين نفسه وما تجد من حرمان وضيق وعجز . وأظهر سخطه على أصحابه لسوء معاملتهم له فتمنى لو أنهم انقطعوا عنه انقطاعاً تاماً . ثم عزى نفسه باقباله على الدرس والبحث ، وقال إن الأدب خير صديق له فى حياته ، وأنه يشعر بالسعادة حينما يزاول هذا الفن الرفيع بالرغم مما هو فيه من ضيق وفاقة . وقال من قصيدة أخرى :

علم الله أن حظى فى البؤس س كبير لكننى غير عانى^(١)
كل حظى من السعادة أنى رضى نفسى على خطوب الزمان
لا أبالى إذا استبنت طلوع الذ سجم بسعد أم بنحس رمانى

فهو يذكر أنه اعتاد حياة البؤس والشقاء ، وأنه لم يعد يهتم بما يصادفه من شدة العيش . ولا يعبأ بما تجبئه له الأيام من حزن أو فرح لأنه وطن نفسه على مقابلة كل حالة بالصبر والرضا . فلم يعرف طه حسين اليأس فى حياته قط بل ظل محتفظاً بروح معنوى قوى ، وعزيمة ماضية . وهذا هو سر عظمته .

* * *

ومن انضم إلى حزب البؤساء فى ذلك الوقت على الغاياتى الذى كان يجمع فى شعره بين الشكوى من الفقر والبغابة والسخرية . مثال ذلك قصيدته التى نشرها تحت عنوان « حرية الشكوى بين^(١) العبد وربّه » وفيها يقول :

خلقت العباد وأرزاقهم ففهم سعيد ومنهم شقى^(٢)
وقد ساء حالى بين الورى كئانى يارب لم أخلق

(١) مصر الفتاة فى ٢٧ / ١١ / ١٩٠٩ (٢) الوطن فى ١ / ٣ / ١٩١٢

فإن أك عبداً فن رازقي ؟ وهأنا للآن لم أرزق
وإن تك ربا فما حجتى إذا قيل ربك لم يتق
لئن ضقت ذرعاً فعفوا إذا نطقت فضل الهدى منطقى
فإنك يارب أنت الذى قسوت على ولم تفرق
أراك غنياً ولكنى إذا رمت جدواك لم تنفق
ولو شئت خيراً لأنقذتنى من الضر والعدم المحقق
ولكن لهوت وألهيتنى من العيش بالأمل المخفق
فأقسمت أنى أشكوك فى قريضى للغرب والمشرق
وشكواى منك إليك وما لعبدك غيرك من معتق

وذكرت الصحف أن الغياى مر بدكان فشاهد لوحة كبيرة كتب عليها
« هذا من فضل ربى » ثم نظر فى الدكان فاذا فيه من بضاعة لاتساوى أكثر
من نصف جنيه ، فتقدم من صاحب الدكان وصفعه صفقة قوية قائلاً له
« طمعته فىنا »

أما طه حسين فكان هادىء النفس ، مطمئن الخاطر . إذا شكاً من البؤس
لم يخرج عن حد الوقار والاعتدال ، بل كان يجاهر بأنه مرتاح إلى ما هو فيه
من ضيق ، وأن اشتغاله بالأدب يجلب له من السعادة والسرور ما يجعله ينسى
البؤس . وطه حسين كان والده يتولى الإنفاق عليه بخلاف الغياى الذى خرج
من بلده هائماً على وجهه يبحث عن رغيف فلا يكاد يجده

» » »

ولقد شكاً طه حسين من إهمال النقاد لما يكتب وعدم اهتمامهم بمناقشته .
قال تحت عنوان « من أيهم أنا ؟ »

« . فأما سبيء الحظ من الكتاب فأحد اثنين : رجل لم يلق من الناس إلا انتقاداً مرا ، وتشهيراً مخجلاً ، لأنه لم يقصد إلى الجادة ، ولم يوفق إلى الصواب . »

« ورجل لم يلق من الناس خيراً ولا شراً ، ولم يبذل منهم حلوا ولا مرأ ، لأنه لم يكتب ما يستحق المدح والقدح . أو لأن مقاله صادف من القراء أوقات الخمول والسآمة . »

« فن أي هؤلاء يمكن أن أكون أنا ؟ »

« خطر لنفسى هذا الخاطر فألقت على هذا السؤال بعد أن قرأت مقال الجمعة فاذا هو سابع ما نشر بهذا العنوان ، وقد يكون الرابع عشر لما نشر بهذا الإمضاء . وإذا أنا كأول يوم كتبت . لا أقول لأنى لم أسمع كلمة ثناء ، فقد علم الله ما ابتغيتها اليوم ، ولا تمنيتها . ولئن كنت مشغوقاً بها كل الشغف . فهى الآن أزهد عندى من عطفة عز كما يقول على بن أبى طالب ، لأنى أعلم أن آئها لم يؤن بعد ، وأدخرها لذلك اليوم الذى تطلبنى فيه ولا أطلبها ، ولكن لأنى لم أسمع كلمة ناقد ، ولم أر مقالا لعائب بعد أن دعوت القراء إلى أن ينازعونى أطراف القول فيما أكتب وأقول . »

« ولقد كنت أحسب أن بؤسى مطبق فى كل شىء حتى فى الكتابة ، وأن موقفى زلق فى كل مكان حتى بين الكتاب . نظرت فاذا أنا لست من كتاب المنزلة الأولى ، فلم يرعنى ذلك ، لأن هذه المنزلة غاية يبلغها كل كاتب مثلى لم يقف من حيث الإجابة والإحسان عند حد . ثم نظرت فاذا أجد الرجلين فى المنزلة الثالثة . »

ولكن طه حسين استطاع أن يحطم بؤسه فى هذه الناحية ، ناحية إغفال الناس له وإهمالهم لما يكتب . فقد اشتبك مع كتاب المؤيد فى نقاش عنيف .

وإن كان لا طائل وراءه . وجرح المنفلوطى بغير وجه حق تجريحاً قبيحاً .
وهاجم رجال الأزهر هجوماً قاسياً ، وبذلك لفت إليه الأنظار .

« * »

وكان فى ذلك الوقت محتفظاً بزيه الشرقى ، ويرى أنه من العقوق للأمة
والخروج على الوطن أن يترك المصرى زيه الشرقى ، ويتخذ الزى الغربى .
فنشر سنة ١٩١٠ مقالا تحت عنوان « الأزياء^(١) » جاء فيه :

« مخطئ كل الخطأ صاحب الزى الشرقى الجميل يستبدله بالزى الغربى
مرضاة لهوى كاذب ، وشهوة خادعة » .

« مخطئ لأنه ينزل عن كرامة الأمة فى عاداتها وآدابها ليندمج فى
أمة أخرى من غير حق ولاداعية . حبذا الانتقال من حسن إلى أحسن ،
ولا حبذا الانتقال من حسن إلى قبيح » .

« نحن لا نريد أن نقارن بين الأزياء الشرقية والغربية ، ونحكم على
أحدها بحسن أو قبح . ولكننا نقول إن للشرق زيا تدعو إليه طبيعته ،
وللغرب زيا يقتضيه جوه وإقليمه . فليس تبديل الزى الشرقى بالزى الغربى فى
الشرق صادراً إلا عن نفس مرتبكة مختلطة ، ومزاج غير منتظم . وإذا كنا
نمقت اليوم الذى استطاعت فيه القوة أن تسيطر على نفوسنا فتكلفنا أن
نكون على أشكال خاصة وفى أزياء خاصة ، راغبين بذلك عن عاداتنا القديمة
وترائنا للأثور من غير مسوغ ولا منفعة . أقول إذا كنا نمقت ذلك اليوم
فأنا أشد مقتاً لهذا اليوم الذى ينزل فيه أحدنا عن زى مصر إلى زى أوروبا
طائماً مختاراً . هؤلاء ساداتنا الأساتذة بينهم كثيرون لا يكادون يخرجون

(١) الجريدة فى ٣٠/١٠/١٩١٠ .

من مدرسة المعلمين الناصرية^(١) حتى يلقوا عن رؤوسهم العمامة وينبذوها نبذا . وحتى يصبح أحدهم أوربيا في شكله وزيه ، بل في حديثه ومحاورته غير حافل بأنه من طبقة هي أرقى طبقات الأمة التي يجب عليها أن تحفظ للأمة مظاهرها الجميلة . وأى طبقة في أمة أرقى من طبقة المعلمين ؟ ! »

وكتب مقالا آخر^(٢) في الموضوع المتقدم جاء فيه :

« من أشد الناس عقوقا للأمة وبغيا عليها ذلك المصري لا يكاد يعدو ثغرا من ثغور مصر مبحرا إلى أوربا حتى يقطع أسبابا ويصل أسبابا »
« يقطع ما بينه وبين مصر ، ويصل ما بينه وبين أوربا . فيترك لنا أزياءنا ولغتنا وآدابنا ، وينتحل مثلها من أزياء أوربا ولغاتها وآدابها . وربما عمد إلى لحيته فاتخذ منها شكلا فرنساويا ، أو أتى عليها وعلى شاربه تقليدا للانجليز ، كأن لم يكن له بنا عهد طريف ولا تليد » .

« مسكينة مصر ، لا تعرف إلى قلوب أبناءها سبيلا فقد أحيتهم بمائها وهوائها ، وأسعدتهم بنعيمها وصفائها » .
« عرفتهم فأنكروها ، وأسعدتهم فأشقوها . ولم تجن منهم إلا ماتجنيه الأم البائسة من ولدها العاق الأثيم » .

« يدع المصري زيه في أوربا لأنه لا يجب أن يكون هزأة لأبناء الغرب يضحكون منه ويزرون عليه . ولكنه مع الأسف يدفع الشر بشر منه ، ويتقى البلاء بما هو أسوأ منه مغبة وأقبح شرا » .

« يشتري الكرامة المادية بكرامة نفسه ، ويسره أن يرضى الفتیان والفتيات وإن نزل في سبيل ذلك عن عادات قومه وآدابهم ، وبذل الفضيلة والخلق الكريم » .

« قل بين أبناء مصر الذين يتعلمون في أوروبا أو يصطافون بها — وهم كثيرون — من يستبقى على رأسه العمامة ، حتى قالت بعض الصحف البلجيكية أيام ائتمار المصريين في بروكسل إنها تعجب بمصرى^(١) واحد حافظ على شكل أمته وعلى زيها . ولو أن هؤلاء قليلا من حسن النظر والتفكير لقاسوا أنفسهم إلى أولئك الغربيين الذين لا ينزلون عن زى من أزيائهم ، ولا عادة من عاداتهم في بلادنا وفي غيرها مهما لاقوا في سبيل ذلك من أذى وازدراء » .

« فالى هؤلاء المصريين الذين سيقراون كلمتنا في أوروبا نتقدم بالنصيحة الخاصة ؛ أن لا يبيعوا كرامتهم وإخلاصهم بثمان بنجس . وأن لا يبلغ الضعف من نفوسهم هذا المبلغ المخجل ، فان للأمة فيهم أمانى وآمالا كبيرا » .

هذا ما كتبه طه حسين سنة ١٩١٠ فيما يتعلق بالأزياء . وفي صيف سنة ١٩١٤ غادر مصر إلى فرنسا . وقبل أن يضع قدمه في الباخرة كان قد تخلى عن زيه الشرقى وعاداته وتقاليده الشرقية . ولعله تذكر ما كتبه في هذا الصدد فسخر من نفسه وضحك .

كان طه حسين كثير النقد للمجتمع المصرى في مقالاته وقصائده . وكان شديد السخط على المصريين لكثرة الأدعياء بينهم ، ولما يغلب عليهم من الكسل والخمول والرغبة عن العمل النافع . وهو يقرن السخط بالدعوة إلى الاجتهاد . مثال ذلك قوله :

حسبكم يا بنى الكنانة عجبا كسل مخجل وفخر كثير
وقوله من قصيدة أخرى :

كاتب نائم ، وذو الشعر لاه وأديب سبته كأس الشمول
شاعر النيل لا عدتكَ العوادي هل لهذا السكوت من تأويل ؟

(١) هو عبد العزيز جاويز

أسلموا دارهم وعقوك يانيل فما إن لهم سوى التنكيل
فض فأغرقهمو فأنت حلیم غرض فأهلكهمو وغير بنجل

إن الحقائق التاريخية لا تؤيد طه حسين فيما وصم به المجتمع المصري من كسل وخمول ، ولا فيما رمى به الكتاب والشعراء من التقصير والإهمال . ولو أن المصريين اقتدوا به في خوفه من السجن والأغلال ، والميل إلى حياة الدعة والهدوء لما وصلوا إلى ما وصلوا إليه الآن من العزة والكرامة . ثم إنه يشخص الداء ويعجز عن وصف الدواء ، أى أنه يذكر عيوباً في المجتمع ولا يستطيع أن يحدد أهدافه ، أو يوضح أغراضه التي يقصد إليها . ومن السهل على أى إنسان أن يتهم المجتمع بالخمول والتقصير ، فإذا سألتَه عما يطلبه ليكون المجتمع في نظره بريئاً من العيوب لم تجد عنده شيئاً وطه حسين قد وصف الحزب الوطني بأنه حزب الطيش والضلال ، ولم يرث مصطفى كامل الذي استشهد في ميدان الجهاد . وقال « ولست ^(١) أتمدح بأنى أحب أن أتعرض للأذى ، وربما كان من الحق أنى أحب الحياة الهادئة المطمئنة وأريد أن أتذوق لذات العيش في دعة ورضا » وهذا هو الكسل بعينه وحاجبه .

» » »

ولطه حسين قصيدة في هجاء عبد الرحمن شكرى . وكان شكرى قد كتب مقالاً تحت عنوان « لحن الشعراء ومستقبل الشعر العربي » جاء فيه :

« قرأت عدة مقالات في الجريدة لأديب اسمه طه أفندى حسين . ويعجبني منه كثير من صريح آرائه ، غير أنى لا أرى رأيه في قوله إن سليقة الشعر قد فسدت ، وأن أسلوب شعراء هذا العصر أسلوب فاسد إذا قيس بأسلوب شعراء الدولة العباسية »

« وربما ظن القراء أن الشعراء يقيسون الشعر على التفاعيل في وقت

صنعه . هذا ما يظنه كثير ممن لا يعالجون الشعر ، وأظن أن هذا ما يظنه
الأديب طه أفندى حسين ، وما يعنى بقوله إن سليقة الشعر فسدت ، -
فما كان من طه حسين إلا أن هجاه بأبيات مطلعها :

قل لشكرى فقد غلا وتمادى بعض ما أنت فيه يشنى الفؤادا

ذكرنا أن طه حسين قد خرج على نظام القافية الواحدة فى القصيدة .
ولما نشرت له صحيفة مصر الفتاة قصيدته « آه لو عدل » قدمت لها بقولها:
« يرى القارىء فى القصيدة البليغة الآتية أن صاحبها الأديب الفاضل
قد انتهج فيها أسلوباً يظنه بعض الأدباء من الأساليب الأفرنجية لاتفاقها مع
الشعر الأفرنجى فى التقاطيع والروى . ولكن هذا النوع لم يفت العرب
فى جاهليتهم فقد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر المسقط » .
« وقد جعلها - يعنى طه حسين - تسعة أسماط ، وكل سمط أربعة أبيات ،
يتفق البيت الأول مع البيت الثالث ، والبيت الثانى مع الرابع » .
وقال أحمد حسن الزيات من خطبته السالفة الذكر :

« بعد عامين من هذا التاريخ - يقصد بعد عام ١٩٠٥ - استطاع بطلنا
أن ينزل الشعر على حكمه ، ويروضه لذوقه ، فصاغ الشعر الحضرى العصرى
فى مختلف الأوضاع ، لأنه وإن كان محافظاً فى اللغة فانه حر فى الشعر . رأى
ما ينقل الشعر العربى من قيود القافية فوقع فى نفسه أن ينفس عنه . فاخترع
له الأضرب المختلفة والقوافى المتنوعة على نحو ما يصنع الأفرنج فى شعرهم ،
إلا أن شعره أجمل وأكمل لاحتفاظه بالذوق العربى والطابع الشرقى . فأتم
ترويضها السادة أنه فكر وهو يافع فى تذليل كبرى العقبات فى الشعر

العربي وهى القافية التى يئن منها عامة شعرائنا ولكنهم يتألمون ولا يتكلمون ،
أو يتكلمون ولا يعملون » .

« أشهد أن بداية فتانا فى الشعر خير من نهاية أكثر شعرائنا
العصريين » .

والزيات قال هذا الكلام سنة ١٩١٤ وكان فى بداية طريقه الأدبى ،
لذلك لا يجب أن نعتد كثيرا بما قال أو نقيم له وزنا كبيرا ، وبخاصة قوله
إن شعر طه حسين أجمل وأكمل من شعر الافرنج لاحتفاظه بالذوق العربى .
وكل ما يمكن أن يقال إن بعض قصائده امتازت بالركة والعذوبة ،
كما امتازت بطابع موسيقى جميل . وقد أوردت له هنا عشرين قصيدة
ومقطوعة ، خرج فى أربع منها على نظام القافية الواحدة ، والبقية سلك
فيها مسلك القدماء . وتعتبر قصيدته التى نظمها فى الاحتفال بالعام الهجرى
١٣٢٩ من أروع ما نظم ، فقد اجتمعت فيها كل عناصر الإجادة : من المشاعر
الوطنية المتدفقة ، إلى حسن الصياغة ، ومتانة التراكيب ، وبلاغة التعبير ،
والموسيقى الشعرية .

وقد شغلت الدراسات الجامعية طه حسين وغيّرت اتجاهه ، فترك طريق
الشعراء إلى طريق آخر . لقد فكر فوجد أن الشعر لا يجلب له الشهرة التى
يرنو إليها ، وذلك لأن الناس كانوا مشغولين بشعر شوق وحافظ ومطران
وغيرهم . فلم يجد طه حسين لنفسه المكان اللائق بين الشعراء ، ورأى أن
كتابة المقالات فى النقد الأدبى ، ونقد المجتمع ، والتهجم على رجال
الأزهر ، وعلى بعض الشخصيات الأدبية أجدى عليه كثيرا من نظم
القصائد ، وأجلب للشهرة . ولكن شهرته كشاعر ظلت عالقة بالأذهان

حتى سافر إلى أوروبا سنة ١٩١٤ . قال أحمد حسن الزيات في خطبته المتقدمة
« ولولا أن شعره مشهور مذكور لأوردت منه المعجب المطرب » .

ولا نريد أن نوازن بين طه حسين الشاعر وبين معاصريه من الشعراء ،
لأننا لو فعلنا ذلك لظلمناه ظلماً بينا . فمعاصروه كانوا شيوخاً أو كهولاً
في حين أن طه كان في نحو العشرين من عمره .

ولو أنه استمر في نظم القصائد لكان له شأن بين الشعراء المعاصرين .

شعر طه حسين

١ - رثاء حسن عبد الرازق

قال يرثى حسن باشا عبد الرازق المتوفى سنة ١٩٠٨ وهى أول قصيدة

نشرها :

أفى الحق ما أسمعتنا أم توها تبين فقد بدلت أدمعنا دما^(١)
تبين فان الناس لم تنس عاصما ولم تقض من ذكرى الإمام تألما^(٢)
أفى كل يوم أنت داع بدعوة تغادر قلب الشرق بالهم مفعما
نكأت قروحا لم يحف صديدها وأذيت جراً كان من قبل مضرما^(٣)
ألا إنما تنعى لنا الفضل كاه وتنمى المعالى والوفاء المجسما
رعى الله مصرا إذ تداعت حماها وأضحى بنوها للمنية مغما
هوى كوكب كانت به مصر تهتدى إذا ما دجا ليل الخطوب وأظما
تولى فلم نفقد به شخص واحد ولكنه صرح المعالى تهتما
تولى فذلت مصر بعد مماته همام إذا ما أحجم الناس أقدا
رماه الردى من ود أن بلاده تكون لأهل الغرب نهياً مقسما
ومن يدعى بالطيش نصرة قومه ورائده الأهواء أفى تيمما
مضى «حسن» عنا وخلف لوعة تزيد على مر اليب الى تضرما

(١) الجريدة فى ١/١/١٩٠٨ تبين : تأكد

(٢) حسن باشا عاصم كان رئيسا للجمعية الخيرية الإسلامية ، مات سنة ١٩٠٧ ، والإمام

محمد عبده مات سنة ١٩٠٥ .

(٣) نكأت القرحة ؛ كنع ؛ قشرها قبل أن تبرأ . القروح : الجروح .

وما الصبر عمن فاق في الجود حاتما
ستذكره الشورى إذا قيل من لها
ويذكره العافون إن ضاق ذرعهم
فقد كان فياض اليدين سميذا
وما أنس م الأشياء لا أنس وقفة
ولا خطبة يبقى على الدهر ذكرها
عزاء فلو تنجى من الموت فدية
عليه سلام الله ما دام ذكره
وفي بأسه عمرا وفي الرأي أكنما
وقد أبدت الأهوال في الظهر أنجما^(١)
وأبدى لهم أهل الثراء التجها^(٢)
إذا بحل للمثرون أعطى فأنما^(٣)
له ألقت في مصر حزبا منظما^(٤)
أبانت لنا رأيا سديدا مقوما
فديننا ولكن كان أمرا محتما
ورحمته ما شاء أن يترجما

٢ - حديث مع النيل

وقفة في الصباح أوفى الأصيل
تزع البائس الحزين عن البؤ
رب ليل قد بات فيه لى الهم
شرد النوم عن جفوني وأذكى
قت عن مضجعي ولا من سكير
ساعيا والأسى ينهته من هم
يتجلى فيها جمال النيل
س وتنسى المحب عذل العذول
م نزيلا أبغض به من نزيل
بين جنبى نار وجد جزيل
فيسرى عني ولا من خليل
مى ويفرى عزيمة بالقفول

(١) الشورى : مجلس شورى القوانين . العافون : الذين يطلبون الإحسان . يقال فلان ضاق
ذرعهُ أى ضعفت طاقته ووقع في مكروه لم يجد منه مخلصا .

(٢) سميذا : سيدا .

(٣) م الأشياء : من الأشياء .

(٤) مصر الفتاة في ١٨/٢/١٩٠٩

سرت والقلب بين داجية اليأ
 وإذا ما تقسم المرء يأس
 ليل أسجح فقد ملكت وأصبح
 ظلم الإنجليز مصر فهل جا
 أجملى نفس إن في النيل للمح
 سر إن في الجزيرة ملهى
 فاذا النيل كاسفا يلحظ اللد
 هادى* السير خافت الصو
 مفعما قلبه بكل شكاة
 ويك يانيل أنت مثلى فى الحز
 ويك يانيل قد غذوت بنى مه
 ما عنائى وما عناؤك يانيه
 فنعوا بالصغار واستعذبوا الضيه
 كاتب نائم وذو الشعر لاد
 شاعر النيل لا عدتك العوادي
 أسلموا دارهم وعقوك يانيه
 فض فأغرقهمو فانت حلیم
 ويك يانيل لو تعلم منا النا
 ويك أرشدهمو فلا من سميع
 ما يفيد الإرشاد قوما نياما
 خبرونى وما إخال لديكم

س وضوء من الرجاء ضئيل
 ورجاء لم يدر قصد السبيل
 فقد سئمنا من طولك المزدول^(١)
 ريتهم أنت فى المقام الطويل ؟
 زون سلوى ومشتقى للغليل
 بين روض وبين ظل ظليل
 ل على كرهه بعينى ملول
 ت لا تسمع منه إلا أنين العليل
 كاظمنا غيظه بصبر جميل
 ن لو أنى أمسيت غير عجول
 رلدن قام كل جيل خيل
 ل لقوم رضوا حياة الدليل
 م فمالوا إليه كل مميل
 وأديب سبته كأس الشمول
 هل هذا السكوت من تأويل ؟
 ل فإ إن لهم سوى التنكيل
 غض فأهلكهمو وغير بخيل
 س لم تحش عاديات الجهول
 ويك وانصحهمو ولا من قبول
 أصبحوا عن حقوقهم فى ققول
 من جواب إلا حديث الفضول

ما ثناكم عن المعالي وأنتم
يرتقى غيركم سرايا إلى المج
أولستم بنى الأولى ابتنوا الآه
أولستم بنى الأولى ملكوا الأار
نحن منهم لو لم يحل بيننا الذهب
ذاك عذر الخمول فى كل شىء
يتجنى على الزمان وماذا
إيه يائيل قد صدقت فالتتض
وإذا ما نصحت للخائن الخب
أمصيبا إذا انتحلت محالا
صنع الله للهداة وللقا
نال من نفسنا الحديث مكانا
نظر النيل نظرة فرأى اللىب
ليل ما بالك استطلت علينا
ليل أو نال دورة الفلك الدا
ليل بن لا رجعت واغرب فاينا
لو أراد الإله أجلاك عنا
صامت لا يجيبنا بجواب
كلف النهر بالنهار فأدلى

أهل عز وأهل مجد أثيل؟
د وأنتم عن العلافى ذهول
رام واستأثروا بحسن القيل؟
ض بجد للمهند المسلول؟
ر وبين المرجو والمأمول
لا شنى الله نفس الخمول
يصنع الدهر بالجبان الكسول
ليل فى مصر أيمًا تمثيل
بر تولاك بالقال الثقيل
وحيلًا إن فهت بالمعقول
دة فى مصر بالطريق الذلول
فلهونا عن ضيفنا المملول
ل مدلا بستره المسدول
أفؤمنت كل بين مزيل؟
ر بعض الإيقاف والتعطيل؟
قد سئمناك من مدل مطيل^(١)
فأنجلت غمرة العدو الدخيل
شقى السائلان بالمسئول
لذكاء من عنده برسول

(١) بن ، من بان بمعنى بعد وفارق .

لمحة ثم بشرت بقدم
أنجم أدبرت تهاوى سرا
قد جلى الله غمرة الليل عنا
تلك أمنيته لو ان بقوى
فتدانت طليعة الصبح تنسل
عندها نار ثائر النيل واهتا
يتنافس مسقط الضوء حتى
ضحك النيل حين أشرقت الشم
وكسته رداءها الأراجواني
كدت لولا التقى أغبر وجهي
منظر يستخف كل حلیم
شغل النيل بالحبيبة عن ذى
ثم نادى تحية وسلاما

وتداعى أعداؤها للأفول
ودجى صيحه بينه وبين الرحيل
وسيجلى العدو بعد قليل
صَيْد الصيد أو نبال النبيل
ل من الليل كالحسام الصقيل
ج بأمواله اضطراب الجدول
عمهن النهار بالتنويل
س وأهدى لها سلام الخليل
فناثته هزة المشمول^(١)
بركوع فسجدة للنيل
طربا حين يغتلى بالعقول
حاجة ليس عنه بالمشغول
سُنْتِم الحديث بعد الأصيل

٣ — حديث مع النيل^(٢)

عم مساء فقد أذاك السмир
لا يرو عنك الفراق فللاً فـ
تولج الليل فى النهار ويأتى
قر عينا فأت أنعم بالا

لا يرو عنك الظلام المغير^(٣)
سلاك يانيل دورة ستدور
من ذكاء إلى الظلام نذير
من حبيب صفاؤه تكدير

(١) المشمول : شارب الشمول ومى البحر التى هبت عليها الرياح الشمالية فبردتها .

(٢) مصر الفتاة فى ٢٦/٨/١٩٠٩ (٣) يرو عنك : يخيفك .

إن قضى الله بانفرادك حيناً فهو الدهر مبعد مهجور
لست أدري وليتنى كنت أدري كيف أبقت على هواك الدهور ؟
كيف أمتما الوشاة وهذا الـ ليل يانيل نائر موتور^(١) ؟
خل عنك المجون واطلب الجد (م) فللجد يستريح الضمير
إنما السيئات من خلق إلاذ سان لو انه بهن خبير
نيل ما هذه السكابة والحز ن ، ألم يعدك الأسى الموفور^(٢) ؟
قال ماراعنى الفراق ولكن قلت إني بما أطبأك خبير^(٣)
غادة أسفرت فغابت ذكاه وتولتك لوعة وزفير
أممها من بنيك أخدان لهو كلهم مدنف الفؤاد أسير^(٤)
لم تزل بينها وبينهم الأز هار تسعى حتى تقضت أمور
كان ما كان والفضيلة تدعو أين منى المعين ؟ أين النصير ؟
لم يُحبها سوى لكن سيني دون هذا اللسان عنهم قصير
ظلم القائمون بالأمر في النا س وأغواهمو ضلال وزور
زعموا أن شرعهم يكفل الخيـ ر والله سنة قد تمجور
وهم ساقه الفرور إليهم ومن الناس جاهل مغرور
ندع الكافرين بالله لكن هل لدى المسلمين منا عذير^(٥) ؟
أيها الناس أين علمكمو القا صر من عالم عداه القصور^(٦)
عالم الغيب والشهادة لايه زب عنه قبل الصغير كبير^(٧)
قد أبحتم لنا الخنا وحظرتهم كيف هذا المسوغ المحظور^(٨) ؟
أهملوا الناس يحكم الله فيهم فهو الغالب القوى القدير

(١) موتور : له نأريطالب به

(٢) يعدك : يتجاوزك

(٤) أمها : قصدها

(٣) راعنى : أقلقنى . أطباك : دعاك

(٥) عذير : عذر ، أو عاذر (٦) عداه : تجاوزه (٧) يعزب : يخفى عليه

(٨) يقول إن الحكومة تبسج الدعارة إن كانت رسمية وتحرمها إن كانت سفية

أنفذوا حكمة على كل جان لا ينلکم من دون هذا فتور
أرجوا واجلدوا كما أمر الله به يجانبكمو الخنا والفجور
إن من يهدر الفضيلة يهدر ليس كفأ لذنبه التعزير^(١)
طرب النيل ثم قال لعمر الله قد كاد يزدهني السرور
أحب للدين من أهل مصر أنت والله بالنجاة بشير
ادع الله يسمع العاقل الندب ولو انه بمصر يسير
نسيت مصر دينها فعداها كل خير وجللتها الشرور
أهملت فيكمو الفضيلة دهرا وأهمل فيكم كتابها المسطور^(٢)
لن ترى بين أهل مصر وفيا يقتضيه الوفاء إلا الزور
عهدنا بالوفاء أيام كان الله (م) ين غضا تلين منه الصدور
عهدنا بالإباء أيام كان الـ موت حلوا يزار ، ليس يزور
عهدنا بالسلام أيام لايع تسف الناس مالك أو أمير
ذاك عصر قد انقضى وتولى ذهبت أعصر وجاءت عصور
حسبكم في الآداب ما قال فلـ تير أو ما أتى به فـكتور
نعم ما قال ذا وما قال هذا ونعمًا قال العليم الخبير
فخذوا من كليهما بنصيب وتوخوا هـداها تستنبروا
كثر المدعون في مصر حتى كاد يقضى على البلاد الغرور
حسبكم يابنى الكنانة عجبنا كسل مخجل وفخر كثير
ليكن قولكم أقل من الفـ ل فلن يبلغ العلاء فخور

(٥) التعزير : العقوبة دون القتل كالخبس والغرامة (٦) هذا البيت في الأصل هكذا :
أهملت فيكمو الفضيلة من أهـ عمل فيكم كتابها المسطور
وكلمة « المسطور » تكون في هذه الحالة منصوبة ، في حين أن حركة القافية في القصيدة
كلها الرفع .

يا بني اسمعوا النصيحة مني
أخلصوا تصدق الأمانى وتنجح
أجمعوا إن أردتم السير للسؤ
كنت أرجو لكم من المجد والسؤ
سكت النيل ثم قال كلاما
فذرّوه أو اطلبوه كثيرا
قرّض هذا الشاعر النيل لو يذ
لم يطل ليلنا ، وليل الأمانى
ما ألدّ المنى وأعذب لولا
هنّ جلّين غمرة الهم عنى
هنّ وكلّين بى الهناء وبؤسا
ليت شعرى وليس يجدى على المر
ما لهذا الزمان عند بنى الإذ
يوسع الكائنات صفحا وجدّ الذ
أنت يا نيل قد أمنت الأمانى
ظاهر أنت من كواذب أخلا
ليس بدعا أن يجنى الخير الخي
بسم النيل بسمه الحزن فاستق
فرح خالط الهموم فبادت
وزهتنا النسيم فاهتزت الأء

فهى إلا تنفعمو لا تبزير
إن مصر بالخلصين نزور
دد والمجد أمركم ثم سيروا
دد لو أن عزمكم لا ينخور
لم تسعه من القريض بحور
فيسير على الأديب النثير
طق لكنه فتى محصور^(١)
حين يلهو الفتى بهن قصير
أن جبل المنى بنا موتور^(٢)
وتألّين أنى مغمور^(٣)
ففؤادى مروع مسرور
ء بكاء ولوعة وسعير
سان يعدو عليهمو ويغير ؟
اس من دون ذاك جدّ عثور^(٤)
وعداك الضلال والتغير
ق وللمعتفين عذب طهور
ر ويشقى بشره الشرير
بلها من طوابع الصبح نور
هكذا يطرد الهموم السرور
صان تها وغرد العصفور

(١) محصور : عاجز عن التعبير عما يجول بخاطره (٢) موتور : متقطع

(٣) تألّين : أقسم (٤) عثور : كثير الغثار أى كثير السقوط .

منظر ثم مسمع تركاني في ذهول كأننى مغمور
والذى يغتلى بى الحب فيه بسمة الحزن يقتضيها البشير
ليت شعرى أكان قدرها النير ل فلم يعد ما به التقدير
أم سها عنهما الزمان فجاءت سقطة وهو بالأمانى نزور
لا على العاشقين من بخل الدهر فهذا نصيبنا المقدور

٤ — آه لو عدل

نشرت هذه القصيدة صحيفة مصر الفتاة في ١٢/٣١/١٩٠٩
وقدمت لها بقولها :

« يرى القارئ في القصيدة البليغة الآتية أن صاحبها الأديب الفاضل
انتهج فيها أسلوبا يظنه بعض الأدباء من الأساليب الإفرنجية لاتفاقها مع
الشعر الأفرنجى فى التقاطيع والروى . ولكن هذا النوع لم يفت العرب
فى جاهليتهم ، فقد كانوا ينظمونه ويسمونه الشعر المسمط .

وقد جعلها تسعة أسماط ، وكل سمط أربعة أبيات ، يتفق البيت الأول مع
البيت الثالث فى الروى ، والبيت الثانى مع الرابع كذلك ،

شادن عطف عطفه الحبيب^(١)
بعد ما صدف صدفه الملول
كم سبى العقول قوله الخلوب
يملك القلوب ثم لا يُنيل

(١) شادن : المراد به الفتاة . عطف : مال .

كل ذى بهاء يمقت الوصال
يظهر الحياء وهو فى حدود
من لدى السهود منه بالذوال
إن فى الجمال عثرة الجدود

إن فى الهوى زلة القَدم
فيه كم هوى ثابت الجنان
قل لدى السَّنان أو لدى القلم
كلتِ الهمم عنه والبيان

بدؤه مجون يهيج الحياه
ثم بالجنون ينتهى الخبر
إنما انتصر صاحب الأناه
تنقضى منهاه منه إن صبر

أى لوعة بين أضلعي ؟ !
أى عبرة تذرِف الشئون^(١) ؟ !
ثم بالشجون سَحْ أدمعى^(٢)

(١) عبرة : دمة . الشئون : جمع شأن وهو مجرى الدمع إلى العين .

(٢) الشجون : جمع شجن وهو الحزن .

سِرْ مُولِمِي لَيْسَ بِالمَصُونِ

رَبِّ لِحَظَّةٍ أَصَبْتَ الحَلِيمَ^(١)
 رَبِّ لِفَظَّةٍ تَحْلِبُ النَّمِي
 أَعَيْنَ المَهَا تَصْرَعُ الكَرِيمَ^(٢)
 فَازَ بِالنَّعِيمِ مَنْ حَوَى اللّٰهَ^(٣)

أَيُّهَا — الغرامَ وَنِكَاهَ هل تعود^(٤) ؟
 كُنْتُ مِنْذُ عامٍ مِنْتَهَى الأُمُ —
 مَا الَّذِي فَعَلَ مُدْنَفَ عَمْدٍ^(٥) ؟
 فِيمَ ذَا الصَّدُودِ آهَ لَوْ عَدِلَ

شَفَّ عَاذِلِي حُبُّهُ العَاذِلَ^(٦)
 مَ ————— الهِ وَلِي غَالَهُ الحِمَامُ
 لَوْ بَلََا الغَرَامَ قَبْلَ مَا عَاذِلَ
 رَشَقَةُ المُقَلِّ تَرْفَعُ المِسلامَ

(١) أصبت الحليم : أبعدته عن حلمه فجعلته يندفع اندفاع الصبي الجاهل .

(٢) منها : جمع مهاة وهي البقرة الوحشية ، والمراد الفتيات الجميلات .

(٣) اللها : بضم اللام وفتحها : العطية أو أفضل العطايا .

(٤) ونك : كلمة تقال للاغراء .

(٥) عمد : هذه الحب .

(٦) شفه : صيره نحيفا .

أيها الفؤاد دونك الغزل
إنما الرشاد في هوى الحسان
إن يكن فلان صده الخجل
فألهـوى دول دعه للزمان

٥- الحبيب المريب^(١)

سيرا إن أردتما وأتركاني
وإذا ما دعوتما إلى الله
أصدرت عن موارد اللهو نفسى
ثابت لرشدتها وتأنت
ويك إن الهوى وإن مرّ حلو
ويك دع عنك خاطر الزهد واقبل
يا خليلي لست أخدع نفسى
قد بلوت الهوى فما ذقت منه
لا رعى الله منذ عامين عهداً
مانح الوصل للخليّ ومُهدى
ذائد النوم عن جفونى ومغري
لعوادي الهموم والأحزان
و لم أرضه فلا تعذلاني
ولوت عنه بعد لآى عنائى^(٢)
ليس مستأنف الهوى لى بشأن^(٣)
ويكما فاهناً به ودعائى^(٤)
نصحنا ، ويكما فلا ترشدانى
بائتئاف الهوى فلا تخدعائى^(٥)
غير مرّ النوى وحلو الأمانى
لى بهذا المهفهب القتان^(٦)
لوعة الصد للمحب العائى^(٧)
هـ بجفن العدو ذى الشنان^(٨)

(١) مصر الفتاة فى ٢١ / ٩ / ١٩٠٩

(٢) أصدرت : رجعت . لوت : نلت . لآى : إبطاء أو شدة . عنان : بكسر أوله ؛ سيرا اللجام

(٣) ثابت : رجعت .

(٤) ويك : كلمة تقال للأغراء بمعنى أقبل .

(٥) بائتئاف : باستئاف ، أى بالرجوع إلى اللهو .

(٦) المهفهب : الضامر البطن ، الدقيق الحصر .

(٧) العائى : المرهق .

(٨) ذائد : مانع . الشنان : البغض .

مطمعى بالمقال منه ومدني ال
لا أحب الهوى إذا لم كُشبه
ما ألد الصدود منك إذا لم
أيها المستخف عقل مهلا
لا أذود الطير عما بلوت ال
لا تخف أنت في الجمال فريد
يمينا لولا تقي الله أشرك
مال بالقلب عنك ريب وشك
رية لو جلوت منها يقينا
لا ألوم الفؤاد في الحب مالم
لا أرى للغرام في الغنى ذبا
هن أغرين بالجمال نفوسا
أنا لولا الحياء أفضيت لنا
غير أنى أفتى الحياء واسته

يأس منى بنائل غير داني
شائبات الصدود والهجران
تبغه وصلة لإرضاء ثاني
لست من صبوتي ولا سلواني
مر منه كما يقول ابن هاني
لا يدايك فيه يوما مداني
تك في طاعتي وفي إيماني
ما تبينت فيهما من بيان
حمد العاذلون منك مكاني
يك لي بالصدوف عنه يدان
إنما الذنب للوجوه الحسان
برئت من معادن الشيطان
س أمورا يكلحن وجه الزمان
تب نفسي بالنسك في رمضان

٦ - الفجور بعد العفة^(١)

ضنيت لا من هوى الغواني
وشفني لا صدود ريم
واقترادني لا هوى فلان
ما أنا والحب يزدهني

واشتقت لا للمها الحسان
إذا نثي عطفه سباني^(٢)
فقد تولى هوى فلان
حسبي من الحب ما ازدهاني^(٣)

(١) مصر الفتاة في ٢٧/١١/١٩٠٩ (٢) الريم : الضبي الخالص البياض ، والمراد الفتاة الجميلة . نثي عطفه : ابتعد عني ، والعطف : بكسر العين ؛ الجانب .
(٣) يزدهني : يستخفي

لقد بلوت الغرام غراً فكم بآلامه ابتلاني
 كم حمد الغيد من بلائي مذ كان لي بالهوى يدان
 تحكم الغيد في دهرها ثم انثنى عنهمو عناني
 لا أكذب الله إن عاما مضى حثيثا بلا تواني
 إذا تذكرته استهلته دموع عيني كالجمان^(١)
 إذ أنا في لذة وأمن أباهر اللهو غير واني
 أستقبل الدهر في صفاء وما درى كاشح مكاني^(٢)
 لا يصحو لي عاذل وإن لم يثن اعزامي إذا لحاني
 إني لدو رحمة وعطف على عدوي وإن قلاني^(٣)
 أرضيت بالطيبات نفسي في غير إثم ولا افتتان
 ما أخذ الكاتبان سوءاً يذودني عن ربي الجنان^(٤)
 إن كان في قبلة جُناح فاني منه في أمان
 لم أستبح نيلها فجورا بل قال بالحل مفتيان
 قد نلتها واستزدت منها لو بعض ما نلته كفاني
 ثم طوى الدهر ذاك عنا ليت الردى قبلها طواني
 لا يشمت الحاسدون إني سلوت حبي وماسلاني
 رأيت أن الهوى سيلقي نفسي في هوة الهوان
 فقلت للقلب عدّ عنه ودعه للمترف الجنان^(٥)

(١) استهلته : تساقطت . الجنان : اللؤلؤ

(٢) كاشح : عدو .

(٣) قلاني : أبغضني .

(٤) يذودني : يعنني . ربي : جمع ربوة وهي الأرض المرتفعة

(٥) المترف : المتنعم ، أو الذي يترسل في هواه دون رقيب أو حسيب .

إن نعيم الحياة يفنى وطيب الحمد غير فاني
 هن الأمانى ملكن قلبي يا ويح قلبي من الأمانى
 ذذن كرى النوم عن جفوني وقلن للصفو لا يرانى
 أدين أسبابهن منى ونائل الدهر غير داني
 بينى وبين الدهر حرب لا صنع الله للزمان
 لن يبلغ الثأر من زمان من صال بالسيف والسنان
 إن كان يغنى البيان غنى فانى صاحب البيان
 من حارب الدهر لم يسعه إلا رضاه بكل شان
 لم أمض عشرين غير أنى بلوت دهرى كما بلانى
 ما أنا والحادثات إلا كالريح والأغصن اللدان
 أميل بالنفس حيث مالت مثبت الجأش والجنان^(١)
 إذا شكا البؤس كل ندب فقد نجما منه شاعران
 بيننا نعانيه كان شوقى يقصف فى كرمه ابن هانى^(٢)
 وحافظ فى القطار يلهو مشرداً لهم غير عانى
 أذاك أم مسه شقاء فانتجع الواصل المدانى^(٣)
 ثم انثنى وهو بالصفايا من صلف الدهر فى ضمان^(٤)
 فليطب الشاعران نفسا إنا رضىنا بما نعانى
 ما سرنى ساعة كبؤسى والأدب الغض صاحبان

(١) الجأش : النفس

(٢) كرمه ابن هانى : قصر كان يملكه أحمد شوقى فى المطرية .

(٣) الواصل المدانى : يريد به القطار ، أو الواصل الذى يصل الناس بالعطاء . المدانى : الذى يقرب السائل والمحتاج ويغمره بكرمه .

(٤) الصفايا : نقائص الأموال .

لقد شئتُ الصحاب حتى وَدَدْتُ لو كلهم جفاني^(١)

٧ - في القاهرة^(٢)

نام ليل وأسعدتني الليالي
بين حالي مسرة ونعيم
لا يُرْع حاسدي أو لا يهنا
علم الله أن حظي في البؤ
كل حظي من السعادة أني
لا أبالي إذا استبنت طلوع النج
لا أبالي إذا عرفت صديقا
أنا لا أجتوى من الدهر إلا
كلهم ثعلب إذا أعوزته
لا أحب الصديق إن لم يشارك
لا أبالي إذا عشقت جيلا
حاش لله أن أكون خليًا
أنا أصبو إلى الغرام ولا يع
لا أحب الهوى إذا اعترضته
ذاك أني أرى الصدود رسول ال
فاذا ما بلوته من خليل
هذه خلّتي وإن لم يقابل

وعداني تقلب الحداث
أنا من أن تقلصا في أمان
بسروري ونعمتي خلاني
س كبير لكنني غير عاني
رضت نفسي على خطوط الزمان
م بسعد أم بنحس دهاني
أشَفَتُهُ مودتي أم قلاني
سوء حظي من كثرة الإخوان^(٣)
حاجة زارني وإلا ازدراني
ني قبل السرور في الأُحزان
استحب الوصال لي أم جفاني
من هوى الغيد أو غرام الغواني
رف لي في الجنون بالحسن ثاني
شائبات الصدود والهجران
بغض أو قبضة من العدوان
لم أسئه ألويت عنه عناني
ها رفاقي إلا بالاستهجان

(٤) شئتُ : كرهت

(٥) مصر الفتاة في ١ / ١٠ / ١٩٠٩

(٦) أجتوى : أحزن

أنا إن أشك صاحبي فقديمًا لم أجد في الصحاب من أشكاني^(١)
 أيها العاشق الذي ضاق ذرعا بشئون الغرام فاستفتاني
 قد هويينا كما هويت وقد نه لم أن الهوى من اسم الهوان
 غير أني أرى شفاءك فيما قد تلمست طبه فشفاني
 كنت أهوى وما إخالك إلا ذاكرًا ما لقيته من فلان
 شقني حبه كما شفه حبي فلم يعد أن أذل مكاني
 مال بالود حيث مالت رياح فكفى نفسه الهوى وكفاني
 لم تكن ساعة وجدت حبًا كن قبل الخلاف جدًّا متان^(٢)
 مثل هذا الحبيب خير وأبقى لك إسلامه إلى النسيان
 لا تجد بالفؤاد إلا لمن حصّ نه طهره من الذؤبان

٨ — ثناء وهناء^(٣)

قال مهنثا عبد العزيز جاویش بمناسبة خروجه من السجن سنة ١٩٠٩
 الآن حق لك الثناء فلتحي وليحي اللواء
 ولتحي مصر وأهلها شاء العبدى أو لم يشاءوا
 تعلو بها أصواتنا حتى تردها السماء
 ندعو بها حتى يصم (م) الكارهين لها الداء
 يعلو بها للشيب والشبان والنشء النداء
 فتجيبهم خلف الستار بها العذارى والنساء

(١) أشكاني : شكاني

(٢) جدت : قطعت

(٣) مصر الفتاة في ١ / ١٠ / ١٩٠٩

تَمَلِّينَ لَا صِرْعَى الْمَدَامَ وَلَا اسْتَطَارَ بِنَا الصَّبَاءُ^(١)
لَكِنْ تَنَاهَتْ إِذْ نَجَوْتَ لَنَا الْمَسْرَةَ وَالصَّفَاءَ
هُمْ يُحَرِّقُونَ وَتَسْتَفْزِ (م) هُمُ الضَّغِينَةُ وَالْعَدَاءُ
فَلْتَأْكُلِ الْبَغْضَاءُ قَدْ بِهِمْ فَذَاكَ لَنَا شِفَاءُ
مَا ضَرَرْنَا كَمَدِ الْعَدُو (م) إِذَا أُتِيحَ لَنَا الْهَنَاءُ
إِنْ كَانَ ذِكْرُكَ لِلْجَلَاءِ يَسُوءُ فَلْيَكُنِ الْجَلَاءُ
أَوْ كَانَ صَوْتُ الشَّعْبِ عَنَّا دَهْمُهُ هُوَ الدَّاءُ الْعِيَاءُ
فَلْيَعْلَمْ صَوْتُ الشَّعْبِ حَتَّى يَرْجِعُوا مِنْ حَيْثُ جَاءُوا
قَدْ عَلِمُونَا أَنْ شِدَّةً تَنَا لَشِدَّتِهِمْ دَوَاءُ
دُلُّوا بِقُوَّتِهِمْ وَأَعْمَاهُمْ هُمْ مِنَ الطُّغْيَى غَنَاءُ^(٢)
مَاقُودَةُ الْبَاغِينَ إِنْ مَحَصَتْهَا إِلَّا هَبَاءُ
فَلتَزِدْهُمْ فِي مَنَا صَبَبَهُمْ عَلَيْنَا الْكِبْرِيَاءُ
سَيَرُونَ إِذْ تَبَدُّوا الْحَقِيقَةَ أَنْ قُوَّتِهِمْ هَوَاءُ^(٣)
سَيَرُونَ أَنْ الْحَقَّ مِمَّا يُهْتَضَمُ فَلَهُ الْعَلَاءُ
لَمْ يَسْجُنُوكَ وَإِنَّمَا رَدُّوا الْأُمُورَ كَمَا تَشَاءُ
مَا إِنْ أَصَابَتْكَ الْإِسَاءَةُ بَلْ لِأَنْفُسِهِمْ أَسَاءُوا
لَوْ يَعْلَمُ السَّجْنُ الَّذِي قَدْ كَانَ فِيهِ لَكَ التَّوَاءُ^(٤)

(١) الصَّبَاءُ ؛ بفتح الصاد : جبهة الفتوة .

(٢) دُلُّوا : غَرُّوا وتَعَاظَمُوا . الطُّغْيَى : الطُّغْيَانُ . غَنَاءُ : هَالِكٌ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ

(٣) هَوَاءُ : فَارِغَةٌ لَا شَيْءَ فِيهَا وَلَا قِيَمَةَ لَهَا .

(٤) التَّوَاءُ : الْإِقَامَةُ .

من ذا يقيم به لكا ن له بمثواك ازدهاء
 لم لا وأنت لسان مص ر إذا ألح بها المرء^(١)
 تدعو لها ويدود عن ها صدق عزمك والمضاء
 ويزينك الإخلاص إن أزرى بذى الخبِّ الرياء^(٢)
 لك من بنى مصر جيب مهمو التَّجَلَّة والثناء
 فاسلم لمصر وأهلها إنا لنجدتك الفداء

٩- هم جاشس^(٣)

نظم هذه القصيدة حينما عرضت الحكومة مشروع مد امتياز شركة قناة السويس على مجلس شورى القوانين :

تيمموا غير وادى النيل واتجمعوا فليس في مصر للأطباع متسع^(٤)
 كُفِّوا مطامعكم عنا أليس لكم مما جنيتم وما تجنونه شمع^(٥)
 تسع وخمسون كم فيهن من نشب لو فيكمو بالكثير الجمع مقتنع
 ياللكنانة من منكود طالعهما ماذا يحجر عليها النوم والطمع
 من مثل أبنائها في سوء صفقتهم منها إذا ما اجتنوا من غرسهم وزعوا^(٥)
 هموا الذين ابتنوا بالأمس واحترفوا فإلهم إن أرادوا حقهم دُفِّعوا ؟
 لا يصنع الله للمستعمرين فكم يلقي بنو النيل من جرّاء ما صنعوا

(١) المرء : الشك .

(٢) الخب : الخداع .

(٣) مصر الفتاة في ٥ / ١١ / ١٩٠٩ جاشس ؛ من جاش بمعنى هاج .

(٤) تيمموا : توجهوا واقتصدوا . اتجمعوا : اذهبوا .

(٥) صفقتهم : بيعتهم . وزعوا : منعوا .

أكلنا جاع غربي تيمنا حتى إذا اكتظ أغراه بنا الجشع ؟
 لاجاد مصر حياً ، لا أخصبت أبدا حفظ أبنائها من خصبها الضرع^(١)
 يانيل إن سفت للمستعمرين ولم تطب لأبنائك العللات والجرع^(٢)
 فلا جريت ولا رويت ذا ظلم ولا أمدك غيث واكف همع^(٣)
 بل ماجنت مصر أو ماذا جنى نهر كالنيل ينساب لا يدعوا ولا يزع^(٤)
 الذنب ذنب بنى مصر فانهمو هو الذين إذا ما استخضعوا خضعوا
 هو الذين استبدت في حقوقهمو يد الدخيل فما ذادوا ولا منعوا
 هو الذين يقول الناس إنهمو إن صادفوا ملهيا عن جوعهم قنعوا
 لا أكذب الله كم قينا ذوو شتم إذا أريدت بهم مكروهة فزعوا
 لكنهم هجّع عن حقهم غفل وكيف يدرك حقاً معشر هجّع^(٥) ؟
 لا أكذب الله قد قاموا وقد جهروا بالحق لو أن صوت الحق يُسمع
 قل للوزارة إن الحق أسمعكم والحق أفضل ما يقنى ويتبع^(٦) ؟
 فان قصدتم فكم حمد زرده وإن تجوروا فان الله مُطلع^(٧)

١٠ - رجاء الدستور بعد الحج المبرور^(٨)

نظم هذه القصيدة مهنثا بها الخديو عباس عقب عودته من أداء
 فريضة الحج :

- (١) جاد : أمطر . حيا : مطر . الضرع : نبات كريحه الرائحة يقذف به البحر .
 (٢) سفت : صرت حلوا في الأفواه . العللات ، جمع علة بفتح أوله ، وهى الشرب
 المتقطع . الجرع : جمع جرعة وهى مقدار ما يشربه الإنسان من الماء وغيره .
 (٣) واكف : متساقط . همع : سائل (٤) يزع : يمنح
 (٥) هجّع : نيام . يقنى : يتبع . (٦) قصدتم : عدلتم
 (٨) الجريدة في ٢٦ / ١ / ١٩١٠

مصر ياخير البلاد حج مولاك وعاد
فالبسى ثوبا قشيبا من جمال وبهاء
يامليكا حلّ منا في سويداء الفؤاد
كم أعدت لك مصر من ثناء وهناء

* * *

أنت والدستور في الحب لديها أخوان
وترى وجهك باليم من لها نعم البشير
كن لوادى النيل حصنا من عوادي الحدّثان
وامنح الدستور مصرا أنت إن شئت قدّير

* * *

هل سمعت الصوت يدعو لك من القبر الكريم؟
إنما أنت على الناس وصى وأمين
لاتذدهم عن صراط الحق والنهج القويم
أرض بالدستور مصرا يرض رب العالمين

* * *

يا أمين الله أرض الله عنك
ليس يرضى الله إلا بعد أن ترضى العباد
امنح النيل من الدس تور ما يرجوه منك
تلق حُسن الأجر في الداء يا وفي دار المعاد

* * *

يا بني النيل هلموا جردوا للمجد عزماء
ودعوا التقصير عنكم وارفعوا شأن الوطن
لا يفرنكم نعيم طلب العلياء أسمى
لاتبعموها بغال ليس للمجد ثمن

* * *

اذكروا عزكم السا بق والمجد التليد
لا تكونوا الخلف الس لا لأصل الكريم
كيف يروى النيل من عن حوضه ليس يزود؟
حاشا لابن النيل أن ينع بالعيش الذميم

* * *

اطلبوا الدستور يا قومى ونادوا بالجللاء
والزموا السلم فان النص للحق المبين
وارفعوا الصوت باخلاص وحب وولاء
ليعيش عباس وليحيا أمير المؤمنين

١١ - لبيت لأحب قضاء^(١)

شف قلبي ما يعانى من تباريح الجوى^(٢)؟
يعشق الحسن ولكن ليس يحظى بالوصال
أنا من وصل حبيبي بين صد ونوى
من عذيري من بخيل ضن حتى بالخيال^(٣)

* * *

يارعى الله عهدا للهوى منذ سنين
حين كنا فى أمان من عيون الرقباء

نَجْتَنِي اللَّذَاتِ لَا نَحْ شَيْ أَذَاةَ الْكَاشِحِينَ
إِنَّمَا الْعَذَالُ لِلْحَبِّ وَلِلْأَحْبَابِ دَاءٌ

* * *

أَهْ مَا أَحْلَى الْأَمَانِي لَيْتَ أَيَّامِي تَعُودُ
أَنَا مَا أَمْضَيْتُ مِنْ مَهْمَةٍ رَى عَشْرِينَ رُبْعَةً
غَيْرَ أَنِّي قَدْ بَلَوْتُ اللَّهَّ بَيْنَ وَالْجُنْهِدِ الْجَهِيدِ
بَيْنَ بَوْسٍ وَنَعِيمٍ يَذْهَبُ الْعَمَرُ مَرِيحَةً

* * *

يَحْسِبُ الْعَذَالُ أَنِّي هَمَّتُ بِالْحَبِّ جُنُونًا
لَوْ رَأَى الْعَذَالُ رَأْيِي فِي الْهَوَى مَا عَذَلُونِي
وَلَمَّا قَالُوا فَلَانِ أَحَدٍ الْمُسْتَهْتَرِينَ
أَنَا لَا أُعْطَى غَرَامِي أَبَدًا كُلَّ شَتْوِي

* * *

سَاعَةٌ عِنْدِي لِلْجُودِ وَأُخْرَى لِلْغَزَلِ
فَإِذَا مَلْتُ إِلَى الْجُودِ فَقَدَامُ أُرِيبُ
وَإِذَا مَلْتُ إِلَى الْحُبِّ فَآبُ لِلْعَذَلِ
هَذِهِ جَمَلَةٌ أَحَدُ وَالِي فَهَلْ فِيهَا ذُنُوبٌ ؟

* * *

سَيَقُولُونَ حَرَامٌ قُلْتُ لَيْسَ بِحَرَامٍ
إِنَّمَا حَرَمَ رَبِّي فِي الْهَوَى مَا كَانَ رَجْسًا

أَيُّ دِينٍ أَوْ كِتَابٍ لَمْ يُبَيِّحْ وَرْدَ الْغَرَامِ ؟
لَا شَيْءَ اللَّهُ لِأَهْلِ الْإِيمَانِ وَالتَّضَلُّيلِ نَفْسًا

* * *

لَيْتَ لِلْحُبِّ قَضَاءَ يَرُدُّعُونَ الْأَدْعِيَاءَ
إِنْ فِي الْحُبِّ بُغَاءَ يَسْتَحِلُّونَ الْحُرَّمَ
يَذَرُكَ الْمُحْتَالَ مَا يَبْغَى وَيَشْقَى الْأَوْلِيَاءَ ^(١)
وَقَلِيلٌ بَيْنَ أَهْلِ الْحَسَنِ مَنْ يَرَى الذَّمَّ

* * *

رَبِّمَا يَخْدَعُ أَبَدًا صَارَ ذَوِي الْحُبِّ الْجَمَالِ
مِثْلًا يَخْدَعُ أَبَدًا صَارَ ذَوِي الْحَسَنِ الذَّهَبِ
أَنَا لَا أَعْشَقُ إِلَّا ذَا جَمَالٍ وَكَمَالِ
مِثْلَ هَذَا لَا أَخَافُ اللَّوْمَ فِيهِ وَالْحَرْبَ ^(٢)

* * *

إِنْ لِلْغِيَدِ خِدَاعًا رُبَّمَا فَاتَ الْفِطْنَ
أَنَا قَدْ جَرَبْتُ مِنْهُ إِنْ تَصَدَّقْنِي فَتَوْنَا
لَيْسَ يُكْفَى غَدْرًا تِ الْغِيَدِ قَوْلَ لَسِنْ
إِنَّمَا يَأْمَنُ مَكْرَ الْغِيَدِ مَنْ كَانَ شَرِيفًا

* * *

أَيُّهَا الْمَغْرَمُ بِالْحَسَنِ تَخَيَّرْ لِهَوَاكَ
فَهُوَ لِلْأَبْصَارِ وَالْأَلْبَابِ فَتَانٌ خَلُوبٌ

(١) الْأَوْلِيَاءُ : الْحَبَّانُ الْمُخَاصُّونَ فِي حُبِّهِمْ
(٢) الْحَرْبُ بَفَتْحِ الرَّاءِ بِمَعْنَى الْحَرْبِ بِتَسْكِينِهَا .

صن غراس الح بأُن يهندي جنى لسواكا
ليس عهد الحب إلا صلة بين القلوب

١٢ - زلة في الحياة^(١)

صام لله وصلى بعد لهو ومجون
أنكر الخللان منه ميله للحسنات
بعد أن كان له في طلب اللهو فنون
عثرة أنقذه إلا بها من عثرات

* * *

أيها المستقبل المظلم ماذا كنت تخفى ؟
نظرة في الحق أبدت لي مستقبل أمرى
أنا إن أقصرت منذ أأمس عن لهوى وقصنى
دونك اللهو فزينة إذا شئت لغيرى

* * *

يا ابنة الكرم وداعاً لك من قبل اللقاء
لم أذقها غير أنى طالما ملت إليها
قد دعانى للهدى على فلبيت الدعاء
فلتعت لذات نفسى غير مأسوف عليها

* * *

يا مثال الحسن غنى لست من أهل الغرام

بعض هذا التيه إلى ملت عن شرع الهوى
قد قسا قلبي حتى صار من صمّ السلام^(١)
لست أشكو منك بعدا يوم صدا أو نوى

* * *

يا شفى الله من النفس قى نفوس العاشقين
أنا للعدال فى العش قى إذا شاءوا فداء
إنما العشق رسول النفس قى يدعو الجاهلين
سسيقولون بذى ليس فى الحق بذاء

* * *

أيهذا العاشق المد نف، حبّ الحق أولى
دونك العشق إذا شئت ولكن للفضيلة
أنا أنهاك من ال أهواء عما كان جهلا
إنما أربأ بابن النية لى عن حب الرذيلة

* * *

أنا إن أبغضت أمسى أتمنى لو يعود
إن لى فيه عظات كن للقلب شفاء
إن كنت أمسى شقياً فأنا اليوم سعيد
رب شر كان للنفس من الشر دواء

* * *

(١) السلام : نوع من الشجر اشتهر خشبه بشدة الصلابة ، واحدها : سلة .

أسلمتني زلة الأم س إلى حزب ويأس
هي والله عليم كل زلات حياتي
لا شفى الله من الأس قام والآلام نفسى
ليت شعري هل يتو ب الله لى عن سيئاتى ؟

١٣ - رثا محمود عبد الفغار "عضو مجلس شورى القوانين

أحمود أم آملنا ضمها القبر ؟ فقد شقيت من فاجعات الردى مصر
تخترم ريب الحادثات حماها وللناس من أيامها العرف والتذكر^(٢)
أفى الحق أما غير مصر فآمن وأما ربها فخطوب بها كثر
تنازعها الأرزاء حتى كأنما لصرف اليالى عند أبنائها وتر^(٣)
طوى حينها منا الإمام وقاسما ولم تعد محموداً أظافره الحر^(٤)
كواكب قد كانت بهم مصر تهتدى فلما تولوا غابت الأنجم الزهر
سهاً أعدتها الكنانة للعدى فخطمها من دهرنا الظلم والغدر
فلا عجب أن يبكى النيل جازعاً ولكن عيب أن يكون له صبر
رعى الله مصرأ ماسعت فى سبيلها إلى المجد إلا عاق مسعاتها الدهر
بنفسى فقيده غاله غائل الردى ولو أننا فى دهرنا رُحِّل سفر
دعته المنايا فاستجاب كمهده إذا دعا للنوائب مضطر

(١) الجريدة فى ٢/٣/١٩١٠ .

(٢) ريب الدهر : أحداثه . العرف : المعروف . (٣) الوتر : الثأر .

(٤) الحين ، بفتح أوله : الموت والهلاك . الإمام محمد عيده المتوفى سنة ١٩٠٥ ، وقاسم أمين المتوفى سنة ١٩٠٨ .

أجل ! طالما أضغى إلى دعوة العلا
قضى لم يتم الأربعين وإنما
أجاب المنايا بعد أن شاد بنية
تولى وخلق لوعة في قلوبنا
على أن دمع الحزن يذكي لهيبه
لئن فارق الدنيا الدنية شخصه
أحمود لا تبعث فكم لك من يد
بكتك عيال الله ما بين حرة
أجدك لم تسمع وجيب قلوبهم
أجدك لم تدر الغداة شكاتهم
أحب مجلس الشورى فقد كنت ركنه
أجبه ولا تصمت فقد كنت فيصلا
نعد من آثارك الغر جملة
عزاء لمصر إن مصر بئيسة
لئن صبرت عن رزئها وتجملت
تمادى بمصر بعدك الحزن والأسى
لمعرى لقد ذابت قلوب وفطرت
وود صحاب مخلصون فجمعهم
ألا في جوار الله مثواك إنما
لئن كنت قد أدت للنيل حقه
أحافظ لا تبخل بشعرك إنما
عهدناك يوم الخطب غير مقصر

وكان به عن غير دعوتها وقر
قضى الأروع المقدام والماجد الحر
من المجد لا يرق لذروتها الطير
ينهنها من سح أدمعنا بحر
فيلظى كما يهتاج بالخطب الجمر
فلم يخل من حزن على فقده صدر
يحل عليها من ذوينا لك الشكر
ترق وشيخ معول عضه الفقر
فقدناهم من بعدك البؤس والشر^(١)
فقد مسهم لما تركتهمو الضر
إذا لج من حزب اليين به الذعر
به حين يخنى الحق أو يشكل الأمر
وإن عظمت عن أن يحيط بها الحصر
يحاربها من دهرها جحفل حجر
ففي الصبر عن أمثاله يعظم الأجر
إلى كم تعاني من صروف الردى مصر؟!
مرأثر واستمعصى على أهله الصبر^(٢)
بفقدك لو وارا هو قبلك القبر
لأمثالك الزلنى لدى الله والخير
فليس يؤدي حقاك النظم والنثر
لأمثال هذا الخطب يدخر الشعر
عن الحق إلا أن يكون لك العذر

(١) أجدك : إذا كانت بكسر الجيم فعناها : استخلفك بحقيقتك ، وإذا كانت بالفتح
فعناها : استخلفك بختك. وجيب : اضطراب (٢) فطرت : قطعت. مرأثر : عزائم جمع مريرة .

١٤ - يوم القران

نشرتْها صحيفة مصر الفتاة في ١٥ / ١ / ١٩١٠ وقدمت لها بقولها «قالها صاحب الإمضاء يهنئ بها صديقه صاحب الحفل ، ويحمد من حفله أن جمعه بصديق له طالت بينهما الجفوة ، فأصلح بينهما » .

وقدم لها طه حسين بقوله « دعيت إلى حفل أقامه صديقي الأديب الأستاذ الشيخ أحمد حسن الزيات لعقد قرانه بكريمة المفضل سيد أفندي النجار . فلما أجبته الدعوة رافئى ما كان في الحفل من جال وظرف ، ولا سيما ذلك النوع من الغناء القديم الذى طالما اشتقت إلى سماعه » .

يا خليلي سلامي حبذا يوم القران
 حبذا أمس فقد أدنى نوالا غير داني
 حبذا ليلة أمس راق لي فيها زمانى
 ليلة قد نلت فيها من حظوظى ما شفانى
 أنا لا أحمد منها حسن توقيع الأغاني
 إنما أحمد منها حسن أنسى بفلان
 لم أزل أقصف حتى خلت أنى في الجنان
 بينما نحن على ذلك إذ زفَّ القمران
 آه يا زيات ما أجمل ساعات الأمانى^(١)

هن قد هجن لنفسي ذكر سحر وعنان^(٢)
 أنا لولا سوء حظي لم أكن إلا ابن هاني^(٣)
 يا شقيق النفس ضا ق الشعر عن نظم التهانى
 لا تلمنى إن دعوت الشع ر ، والشعر عصانى
 جل حبي لك يا زيا ت إعن وصف البيان

١٥ — قال فى الاحتفال بالعام الهجرى ١٣٠٩^(٤)

كن أنت بعد أخيك خير هلال وأضىء لمصر سبيل الاستقلال
 وابسم بها بعد العبوس فربما صنع ابتسامك بالرجاء البالى
 كن أنت ميمون المطالع مرسل للنيل بالاسعاد والإقبال
 أشرق وحدث مصر عن آمالها ماذا صنعت بهذه الآمال ؟
 أمصدق فيك الظنون وناظر للنيل نظرة مانح وصال
 ومبدد عن مصر بعض همومها فلقد أضرب بها أخوك الخالى
 أغرى الخطوب بها وأمطر أهلها من ريبهن بوابل هطال
 ما بين آونة تمر وأختها هول يحيق بهم من الأهوال
 عسف تنوء به النفوس وشدة سواى العواقب جمة الإملال
 ماذا أقص عليك من آلامنا هيات هل يسم الشكاة مقال ؟
 إن الشكاة بمصر جرم مهلك والنقد مصدر محنة ونكال

(١) العنان : يقال رجل طرف العنان ، أى خفيف ، والمراد هنا الحقة .

(٢) ابن هانى هو أبو نواس .

(٣) الهداية عدد ديسمبر سنة ١٩١٠

من يشك أو يرفع بذلك صوته فهو المهيج والسفيه الغالى .
أخذوا على الصحف الطريق وأرهقوا كتبها بالضم والإذلال
وعدا على التمثيل من غلوائهم عاد فأذن ظله بزوال
نعموا من التمثيل نطق ممثل فيه بلفظة كامل وكمال
فاحتاج هائجهم عليه وأغلقوا أبوابه من غير ما إمهال
سل إن أردت النيل عن آلامنا تسمع لديه جواب كل سؤال
وانظر غولى لو بدا لك معشر ترمى إلى لحاظهم بنبال
يتامسون بكل بيت هفوة ويؤولون برأيهم أفعوال
إنى لأكتمك الحديث تحفظا وأرى السكوت على الأذى أولى
فلقد تكون قصيدتى كوسيلة بينى وبين السجن والأغلال

* * *

هلا سألت أخاك فيم نفوره منا وفيم جفاؤه المتوالى
وعلام خص الشرق من أرزائه بالجائحات وفادح الأثقال^(١)
في البرتغال له يد مذكورة وله بأرض الفرس أسوأ فال^(٢)
أشلى كلاب الظالمين عليهمو فغدوا نهاب خديعة وضلال^(٣)
ما زال بالإسلام يعرك أهله وبلاده عرك الرحى بشفال^(٤)

(١) الجائحات . التى تحتاج أى تكتسح أمامها كل شئ

(٢) يشير إلى قيام ثورة البرتغال سنة ١٩١٠ التى انتهت بإعلان الحكم الجمهورى . قال :
القال يستعمل فى الخير والشر ، والمراد هنا الشر أى أنه بشر بسوء العاقبة . وفيه إشارة
إلى إخفاق الثورة التى قام بها الشعب الفارسى ضد الشاه .

(٣) أشلى : حرص وأعمرى .

(٤) يعرك : يدق ويسحق . الثفال : الحجر الأسفل من الرحى

حتى لقد أُمسى بسوء مصيره لهو الحديث ومضرب الأمثال
 مالى وما للبدر أطلب رده بل ما لأفلاك السماء ومالى
 منا بليتنا وفينا برؤها لولا اختلاف الرأى والأميال
 إن السعادة بالوفاق رهينة لا يخذعنكمو بريق الآل^(١)
 نرجو الرقى وكيف ترقى أمة سلكت سبيل التيه والإضلال ؟
 عَبَثَتْ بِحَقِّ الْأَمْهَاتِ وَأَغْفَلَتْ أمر الأمومة أيما إغفال
 لَمْ تُزْهِنْ فَكُنْ مَصْدَرُ شَقْوَةٍ فيها وداءً للبنين عُضَالُ
 سَادَ الَّذِينَ عُذُوا بِأَمْرِ نِسَائِهِمْ وَشَمَّوْا بِهِنَ إِلَى مَكَانٍ عَالِي
 أَنَّى تَكُونُ الصَّالِحَاتُ لَأَمَةٍ رَغِبَ الْغَنَى بِهَا عَنِ الْإِفْضَالِ
 يَجْبَى بِيَمِينَاهُ النَّضَارُ وَلَمْ يَكْدُ حتى يجود على الخنا بشمال
 يَمْسَى وَيَصْبَحُ فِي النِّعَمِ وَقَوْمُهُ لَمْ يَظْفَرُوا مِنْ بَحْرِهِ بِبِلَالِ
 فَالْجَهْلُ مَنْتَشِرٌ تَعِثُ شُرُورُهُ فينا وتفتك فتكة الأغوالِ
 فِي كُلِّ آوَنَةٍ تَمُدُّ حِبَالَهُ فتصيد صرعى الفقر والإحمال^(٢)
 مَا بَيْنَ بَأْسَةٍ تَقْسِمُ ضَعْفَهَا نفس مفرقة وجيب خالى^(٣)
 فَاسْتَرْسَلَتْ فِي الْمُنْكَرَاتِ وَحَلَّتْ من نفسها مالم يكن بحلالِ
 وَذَوَى عِيَالٍ مَرْمَلِينَ غَلَابَهُمْ جهل وأعيام طلاب المال^(٤)
 فَاسْتَفْتَحُوا بَابَ الشُّرُورِ وَأَرْقَلُوا نحو المآثم أيما إرقال^(٥)
 لَا دَرَدَرٌ دَرَّ الْمَالُ إِنْ لَمْ يَدْخُرْ لبناء مكرمة وحسن فعالِ

(١) الآل : السراب . (٢) حباله : مصيدة (٣) مفرقة : خائفة (٤) مرملين : لاقوت عندهم . (٥) أرقلو : أسرعوا .

لا دردر المال إن لم يدخر إلا لذات الطوق والخلخل
 لا دردر المال إن لم يدخر إلا لنيل مراتب الإجلال
 ماذا يفيد وسام صاحبنا إذا سبقت إلى الحسنى يد الحمال ؟
 أيجود تلميذ بدرهم يومه عن طيب نفس غير ذات ملال ؟
 ويجود مضطر بقوت عياله جذلان لا يصفى إلى العذال
 والأغنياء على الملاهي عكف صرعى الملاحظ والهوى الختال^(١)
 إني لأخشى أن تصير أمورنا إن دام بخلفهمو لأسوأ حال
 شبان مصر لكم أوف تحيتي وإلى حميتكم أسوق مقال
 يابح مصر من الزمان وصرفه إن لم تهملوا همة الأبطال^(٢)
 أحيوا العلوم فلا حياة لأمة ألفت أزمتهما إلى الجهال
 رقوا النساء فلا حياة لأمة أمر النساء بها إلى الإهمال
 كونوا لمصر كما تؤمل فيكمو زخر الزمان وبهجة الآمال
 أزهار نهضتها وأنجم سعداها وجالها المزرى بكل جمال
 الرافعين منار مصر ومجدها والخافضين عدوها للتعالي
 والقائمين لها على رغم العدى بالمكرمات وصالح الأعمال
 والفازعين لمصر إذ تدعوهمو فى غير ما وأر ولا إجحال^(٣)
 لازال جيلكمو لمصر بهاءها وعلاءها الباقي على الأجيال

١٦ — الشعر العصري إلى عبد الرحمن شكرى^(٤)

قل لشكرى فقد غلا وتمادى بعض ما أنت فيه يشفى القوادا
 بعض هذا فأنت فى الشعر والنث مر أديب لا يعجز النقادا

(١) الختال : الخداع (٢) يابح : عبارة تقال للرحمة (٣) وأر : فرغ : إجحال . من أجفل

يعنى جرى خائفا فرعا

(٤) الجريدة فى ١١/٢/١٩١١ ، توفى عبد الرحمن شكرى صباح الثلاثاء السادس عشر

من ديسمبر سنة ١٩٥٨

لو تفهمت قولنا لم يكلف
عد إليه تَجِدْ شفاءك فيه
واقتصد في الغلو إن لدينا
خل عنك القريض لست بأمضى
إن تكن أكثرنا قرب مقل
كن إذا شئت آمننا مطمئنا
لك هوى نقدنا الضنى والسهادا
إنما نعت الحديث المعادا
إن تسائل بنا نصلا حدادا
فيه سها ولا بأورى زنادا
حاول القول مرة فأجادا
لم نحاول لما تقول انتقادا

١٧ - رثاء الدكتور ميلوني^(١) الأستاذ بالجامعة

المصرية ، وكان قد مات ١٩١٢

لا أقال الله للموت عثارا
عاهد الدهر على أن لم يزل
أيها الراحل عنا عجيبا
لا أرى رزقك إلا مغرما
قد غرست الأدب الغصن بها
كنت للعلم منارا فلقد
ويل أم الموت لو أمهله
ذاق كأس الموت سما ناعما
نائيا مغتربا عن أهله
يا شهيد العلم في مصر استرح
كلنا نفديك لو أن لنا
فلقد أغرق في الناس وجارا
مذكيا في مصر للحزن أوارا^(٢)
إن للأفذاذ أجالا قصارا
حملت مصر به اليوم خسارا
ثم عوجلت ولم تبجن الثمارا
هدمت ريح الردى ذاك المنارا
لأمانيه التي كانت كبارا
حين لم يضم من الموت حذارا
تاركا في نصرة العلم الديارا
سوف نرعى لك في مصر الجوارا
في اتقاء الموت رأيا أو خيارا

(١) الجريدة في ٢ / ٣ / ١٩١٢

(٢) الأوار : حرارة النار

١٨ - عزاء صديق لائسرة عبدالرازق^(١)

هات من هذه الأحاديث هات لستُ في غفلة ولا في سُبَات
كيف أغتر بالمنى وبنات الدهر ر حرب علىّ محتشدات^(٢) ؟
لا أرى في الحياة إلا عدوا لى يبنى لدى سلب الحياة
فأرى صحى سبيل اعتلالى وأرى لذتى طريق أذاتى
لا أحب الردى ولا أتقيه فضلال حبي له وتُقاتى
لو تَبَيَّنْتُ علم ما أنا لاقٍ فى ذا القبر ما كرهت وفاتى
أو عرفنا إلى الخلود سبيلا لم تطب نفس خالد بالمهات
كم سخرنا بمحادثات الليالى وأراهن بالملأ سخرات
جرت النِّيرات بالسعد والنح س فما سر هذه النيرات ؟
أفناء بعد الردى فهدوء أم حياة الهموم والحسرات
حبذا موقع الخيال لدى النا س مريحا من هذه الشبهات
كذب المحسنون بالموت ظنا خدعوا بالمنى وبالترهات
ما أحق امرئ تولى من الدن يا بسكب الدموع والعبرات
كم زيق الدموع لو أن فى ذا لك صد الردى ورد الحياة

لبنى عبد الرزق الخالص الصفة و من الصبر والرضى والأناة
جمعوا بين عزى الدين والدن يا ونور الحجي وهدى الهداة
فسواء لديهمو الخير والشر ونجح المنى وفوت الرجاة معشر طهرت قلوبهمو الحكم
أنفس مطمئنة وقلوب حمة والعلم عن أسى أو شكاة
ليس فيهم إلا فتى صادق الرأى حرة مرّة على التكببات^(١)
فى شديد المراس صدق القناة

(١) الجريدة فى ٢٨/٨/١٩١٢ (٢) فى البيت لإقواء

(١) مرة ، بكسر الميم : قوة شديدة

ليس فيهم من يزدهيه طلوع النج م بالسيئات والحسنات
لو عرفنا ما تجهلون من ال أمر أجادت عزاءكم أبياتي
غير أنا نراكم الأنجم الزه ر أضاءت غياهب الظلمات
فلکم من حلومکم وحجاکم وسنا رأيکم جيل عظات

١٩- قال مقرظا مقالا لأحمد لطفى السيد^(٢)

بمثل مقال الأمس يعجب كاتب أديب ويرضى عاقل وحكيم
حقائق غر يصدع الشك نورها كما يصدع الليل البهيم نجوم

٢٠- مدح^(٣)

قال مرتجلا يمدح الأميرة فاطمة إسماعيل بمناسبة تبرعها للجامعة المصرية:

عشت للشرق فان الشرق محتاج إليك
رفع الله منار العلم فيه بيديك
وهب الجامعة السعد فنالت نعمتيك
فهى فى أمن من الد (م) هر بما فازت لديك
يا مثال الجود والبر (م) لنا فى بلديك
إنما الحمد وحسن الذ (م) كر موقف عليك

الجريدة فى ١٧/١/١٩١٣ (٣) الجريدة فى ٩/١١/١٩١٣

طه حسين الكاتب

حينما ظهر المنفلوطى بمقالاته الممتازة وأسلوبه الرائع نال شهرة واسعة ، وأقبل الناس إقبالا شديداً على قراءة كل ما يكتب . قال طه حسين فى إحدى مقالاته^(١) « فى البلد أفراد من الكتاب — يعنى المنفلوطى — إذا أعلن أحدهم إلى الناس أن مقالا له سينشر فى إحدى الصحف يوم كذا صادف منهم نفوساً كلفة بما يكتب ، وقلوباً مشغوفة بقراءته ، ثم السنة بعد ذلك منطلقة بالثناء ، وأقلاماً جارية بالإطراء . منها ما يثنى على الكاتب لأنه الكاتب ، ومنها ما لا يصدر فى إطرائه إلا عن اعتقاد صحيح بأنه فى مقاله محسن مجيد » . وكان طه حسين — كما يذكر فى مقال آخر^(٢) — من أشد المعجبين بالمنفلوطى ، يقرأ له النظرات فتقع من قلبه موقعاً حسناً .

وكان الشبان يحسدون المنفلوطى على تلك الشهرة ، وذلك المجد الأدبى الذى ظفروا به . وخيل إلى بعضهم أنهم قادرون على مجاراته ، ولكن كانت تنقصهم الملكة الأصلية والموهبة الطبيعية التى رزقها صاحب النظرات ، فمجزوا ولم يجدوا عندهم المقدرة على الكتابة فانقطعوا بعد مقالات قليلة . وكما قلده فى الألفاظ والعبارات قلده فى العناوين . وكان طه حسين أحد هؤلاء المقلدين . فكتب مقالات تحت عنوان : « بين العبرات والزفرات » سلك فيها مسلك المنفلوطى فى مخاطبة الوجدان ومحاولة إثارة العواطف . وموضوعها قصة شاب على درجة كبيرة من الجمال ، طيب السيرة ، لا يعرف

(١) مصر الفتاة فى ١٠/٨/١٩٠٩ .

(٢) مصر الفتاة فى ٣١/٨/١٩٠٩ .

الشر . كان يعمل خادماً في منزل أحد الأغنياء فهامت به ربة القصر وقربته منها ، وأجلسته إلى المائدة بجانبها ، ثم راودته عن نفسه فلم يمتنع . وظل الأمر مستوراً حتى انكشف إذ دخل صاحب القصر فجأة فوجد الشاب جالساً بلصق الزوجة ، فثار وأطلق عليه النار فأصابته رصاصة في فخذ . وقد تمكن الشاب من الفرار ، وهام على وجهه في مدينة القاهرة ، وظل كذلك حتى عثر عليه طه حسين . وتناول الكاتب مشكلة الخير والشر ، فأشار إلى وجود الشر في كل نفس مهما بدت خيرة . ثم دافع عن الشاب دفاعاً حاراً ، وألقى اللوم كله على النساء العابثات . قال تحت العنوان ^(١) المتقدم :

* * *

« يقضى ساعات الليل ومعظم النهار بين قلب يحف ^(٢) ، ودمع يكف ^(٣) وجسم يرتجف . شهيق وحريق ، زفير وسعير ، وجيب ^(٤) ولهيب . عين ساهرة ، وهموم نائرة ، ونفس حائرة بين ماض مؤلم ، ومستقبل مظلم . صامتاً إلا من كلمات متفرقات يسبقن إلى قلبي فيثرن كمينه ، ويهجن دفينه . يتلجلج بهن لسان لا يكاد يقوى على النطق .. أواه ويلاه .. ليتنى .. لكننى . على أنه منذ أيام قد كان يستطيع أن يخرج إلى ظاهر القاهرة ، أو شاطئ النيل فيسرى همه ، ويسلى حزنه . أما الآن فقد لزم الفراش فباستطيع الحركة ، ولا يقوى على النهوض .

وأصبح مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطياراً يقال له قع .

(١) مصر الفتاة في ١٩/١٠/١٩٠٩ .

(٢) يحف : يضطرب .

(٣) يكف : يتساقط .

(٤) وجيب : يقال وجب القلب أى اضطرب .

رحمك اللهم بهذا الشاب ، ماذا جنى ؟ وما عسى أن يكون ذنبه ؟ إنه لم يبلغ الثالثة والعشرين من عمره ، ولم يحمل من أعباء الحياة ما يكل متنه ، ويتقل كاهله . لم يشفه عشق ، ولم يستخفه غرام . لم يشك علة بعينها على أنه أعياء الأطباء !

رحمك اللهم ! إنه يعول أبوين وأخوين . فمن لهم إذا اختطفته المنية من بينهم بعد حين ؟

رحمك اللهم ! أيدوى هذا الغصن اللدن ؟ وتذبل هذه الزهرة الناضرة ؟ ويستأثر الموت بهذا السيد ؟ وتضم الأرض هذا الشخص الكريم بعد أن كان مثال الكمال فى الخلق والخلق »

« كان بديع الصورة ، جميل الطلعة ، وضئ المنظر ، حسن الخبر ، طاهر النفس ، طيب السيرة . لا يعرف الشر ولا يعيل إليه ، اللهم إلا زلة هى أصل نكبته ومصدر محنته . زلة إلا تكن صغيرة فقد كانت حداثة سنه فيها خير شفيع . »

« ذنب إلا يكن مغفوراً فانه لم يرغب فيه ، ولم يأت طائعاً . جناية إن تكن فظيعة فأما جناها عليه حسنه وخبث النساء . »

« يا لله وللمحدثين ! عقول ناشئة ، ونفوس ضعيفة ، إلى خفة الروح ، وجمال الطلعة ، وتهافت البغيات عليهم ، وتغافل الآباء عنهم ، فماذا يصنعون ؟ . »

« يسأل القارئ عن هذا الشاب الذى صفت نفسه من الدنس ، وطهرت من كواذب الأخلاق . كيف يعثر أو يزل ؟ ولكنك إذا التفت إلى أن قوة من الشر تكن فى كل نفس مهما كانت خيرة ، وتهيجها المؤثرات الخارجية إذا لم يتغلب عليهن حب الخير ، بلغ من الشاب عذراً ، وسأله عن هذه المؤثرات ، وأنا بالإبانة له عنهن زعيم . »

ومن نثره الفنى الذى التزم فيه المحسنات اللفظية ما كتبه تحت عنوان :
 « يوم الصائم عند جمهور من الناس » . « الجريدة فى ١٩ / ٨ / ١٩١٢ »
 « انتصف عليهم النهار وقد أوردتهم الصدى ^(١) موارد الردى ، وبلغ
 منهم الأوام منازل الحمام . خفت الشفاه ، وكمت الأفواه . وخلت الأجواف .
 وفترت الأطراف ، وعبث الصداع بالأبصار والأسماع . يصهر جلودهم القيظ ،
 وينضج قلوبهم الغيظ . فالبطون فارغة ، والعيون زائغة ، والنفوس ذاهلة ،
 والأجسام ناحلة . وقد قطع الحلم عنهم أسبابه ، ومد التزق بينهم أطنابه ^(٢) .
 فغم الجهل والحلق ، وكثر الطيش والخرق . وانطلق اللسان بمحرجات ^(٣)
 الأيمان على الجليل النابه ، والخسيس التافه . ولئن سألتهم عن مصدر ذلك
 وعلمته ليقولن وهم ساخطون : إنما نحن صائمون » .

« كذلك يقضون النهار فى آثام وأوزار إلا ما كان من نوم ساعة كيوم ،
 ومن نعام كقطع الأضراس . فاذا دنا الغروب خفقت القلوب ، وأصغت
 الأذان لاستماع الأذان . وطاشت نكهة الطعام بالعقول والأحلام . فترى
 أشداقاً تتحلب ، وأحداقاً تتقلب بين أطباق مصفوفة ، وأكواب مرصوفة
 تملك على الرجل قلبه ، وتسحر لبه بما ملئت من فاكهة وأترعت من شراب » .

« الآن يشق المسمع دوى المدفع . فانظر إلى الظماء وقد وردوا الماء ،
 وإلى الجياع أطافوا بالقصاع ، تجده أفواهاً تلتقم ، وحلوقاً تلتهم ، وألواناً
 تبديد ، وبطوناً تستزيد . ولا تزال الصحائف تُرفع وتوضع ، والأيدى
 تذهب وتعود حتى تتصبب الجباه عرفاً ، وتقطع الأنفاس شرقاً ، وتدعو
 الأجواف : قدنى ^(٤) قدنى ، وتصيح البطون : قطنى قطنى . وترى الناس

(١) الصدى : العطش (٢) الأطناب : الجبال (٣) محرجات . محرمات

(٤) قدنى : كفى ، وكذلك قطنى .

سكاري وما هم بسكاري ، ولكنها الأبدان قد بلغ منها الكد وأعياءه العناء ، قالت بعد الحركة إلى السكون .

« على رسلكم أيها الناس ! إن الله لم يأخذكم بالظمأ والجوع لترجحوا بالليل ما خسرتم بالنهار . وإنما أراد أن يذيقكم ألم الجوع وحر الصدى لتحسوا ما يحس إخوانكم الفقراء من ذلك ، فترق لهم قلوبكم ، وتمطف عليهم نفوسكم ، وتحسن بينكم وبينهم المودة والاتلاف » .

* * *

وله من مقال : « الجريدة في ١٠/١/١٩٠٩ »

« . . . وكل الناس مستذئب غال في مشايعة نفسه ، وبمالة هواه :

ويندر بين الناس من يتبع الحجي فيقصد^(١) في لذاته أو يهينها

لن ترى هذا الرجل إلا بين الذين استباءوا^(٢) رءوس الذرى ، وشعف الجبال . أولئك الذين لم يبق منهم إلا آثار تؤثر ، وأحاديث يستحبها المرشدون للوعظ وإلانة القلوب . وحسبك بهذا صارفاً لنفسك عن الهوى وصادفاً بقلبك عن ورده :

وأي أبيّ يورد القلب مورداً تقسمه على القلوب ودونها

ولولا أني أسوءك أيها الصديق لقلت إنك لم تعشق صاحبك ، ولكن ملت إليه . وأنه لم يعشقك ولكن مال إليك . وإنما سبيلك معه أن تقصم عراه وتصرم حباله :

(١) يقصد : يلزم جانب الاعتدال (٢) استباءوا : أقاموا أو سكنوا .

(٣) الذرى : جمع ذروة وهي أعلى كل شيء .

(٤) شعف الجبال : رءوس الجبال ، جمع شفعة .

فإن لم يكن للنفس بُدٌّ من الهوى فأهل الهوى من كل نفس قرينها
وخير لك أن تستبقي ما لديك من طريف الحب وتليده ، فتقدمه صداقاً
صالحاً إلى تلك التي ستقاسمك العيش ، وتشاطرك الحياة :
وما رغبت نفس الفتى في حياته كـرغبتها في حرة لا تحونها
تقاسمه الحالين بؤساً ونعمة وبالحب - إن لم يلف مالا - يعمونها
أعلمُ أيها الصديق أنك ذكى النفس ، بعيد عن مواطن الريبة ، ولكنى
لا أعلم أنك معصوم عن الخطأ في الاختيار . وما أحسب ما بينك وبين
صاحبك إلا خديعة منه وحسن ظن منك . وأرجو أن يكون اليوم آخر
عهد لك به » .

« وبعد ، فقد أنبت أنك تتخرج من إظهار كتابك للناس ، وتنكر
ذلك على . ويمينا ما انتحيت في ذلك الصواب ، ولا قصدت إليه . وما علمتك
قبل اليوم متابعا للناس في إخفاء الحقائق ومنعها من أن تظهر للأعين إلا إذا
لبست من الخيال جلباباً ، واتخذت من الوهم نقاباً . ولست أخرى متى يأتى
ذلك اليوم الذى تسكن فيه نفوسنا إلى الحقيقة سكونها الآن إلى الباطل ،
وتفرع فيه من الباطل فزعها الآن من الحق :

إذن لـانجـلت عـنى هـوم كـثيرة يكاد يذيب القلب منى دفينها
أجل ! ولما بادت حقائق حجة يبيء بأثم القتل من لا يبينها

* * *

إلا أن طه حسين لم يكثر من هذا النثر الفنى ، لأن الناس كانوا مشغولين
عنه بالمنفلوطى . وانصرف إلى النثر المرسل الخالى من التكلف ، والذى يعتمد
فيه الكاتب على الحقائق الناصعة والبراهين الساطعة ، والجدل والمناقشة .
ومثال ذلك ما تقدم من مقالاته عن الأزياء ومولدا الحسين . ولم يكن فى هذه
المقالات ما يلفت النظر من حيث الأسلوب ، ولكنه لما عاد من أوروبا ظهرت

في كتابته خاصيته في تكرار الكلمات والعبارات تكراراً مملأ . وأصبح هذا التكرار موضوعاً للتندر والسخرية . وقد عرض مصطفى صادق الرافعي لهذه الخاصية فكتب تحت ^(١) عنوان « أسلوب جديد » مقالا جاء فيه :

[في كل ما قرأت من بدء اتصال الرواية بالعرب إلى اليوم لم أصب مثل هذا الأسلوب الذي تكتب به كقولك في صدر قصة المعلمين :

« نعم قصة المعلمين . فللمعلمين قصة ، وللمعلمين قضية ، وكنا نحب ألا تكون للمعلمين قصة ، وألا تكون للمعلمين قضية ، لأننا نربأ بمقام المعلمين عن أن تكون لهم قصة أو قضية ، ولكن أراد الله ولا مرد لما أراد أن يتورط المعلمون في قصة ، وأن يتورط المعلمون في قضية . ليست قضيتهم أمام المحاكم وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تصل إلى المحاكم ، وليست قضيتهم مفزعة مهلعة وإن كانت أوشكت في يوم من الأيام أن تكون مفزعة مهلعة »]

ثم قال الرافعي [فهذه عشرة أسطر صغيرة دار « المعلمون » فيها عدد الأيام الحسوم . وحكى « القصة » ست مرات ، وكان « للقضية » ست جلسات ، غير ما هناك من مفزعة ومهلعة ، وقد أفزعت وأهلعت مرتين . وغير ما بقى مما هو ظاهر بنفسه] .

[ولا ريب أن الأستاذ إما أن يكون قد نحنا بهذا نحوا لا نعرفه ، وقصد إلى وجه لم تتبينه ، فهو يدلنا عليه لنجريه فيما أجريناه من أساليب البلاغة ونورخ له في الذوق الجديد . وإما أن يكون عند ظننا به في اعتبار هذه الكلمات رقى وطلاسم لتسخير الحكومة للمعلمين بقوتها وروحانياتها]

فرد عليه طه حسين قائلاً :

« أما بعد ، فلسنا نحكي بأسلوبنا أسلوباً آخر قديماً أو حديثاً . ولسنا نتكلف هذه المحاكاة ، وإنما هي طريقتنا في التفكير ، وطريقتنا في الإملاء . فإذا أراد الأستاذ أن يقدر هذه الطريقة ويؤرخ لها في كتابه فنحن شاكرون له عنايته . وإذا أراد الأستاذ أن يزدريها ويربأ بكتابته عنها فله ذلك غير ملوم ولا معاتب »

ولا شك في أن الرافي كان على حق فيما قال ، في حين أن رد طه حسين كان ضعيفاً ، إذ لا يكفي أن يبرأ الإنسان من تهمة تقليد القدماء ليتورط في هذا الإسفاف القبيح . وللتكرار وظيفة إن فقدتها انقلب إلى نوع من العبث وضرب من الهراء ينبغي للكاتب أن يتجنبه .

وانتقد المازني خاصية التكرار عند طه حسين وعلمها بأنه يملئ مقالاته ولا يراجعها ليتعهدا بالتنقيح والتهذيب ، وقال إنه لو فعل ذلك لسلمت مقالاته من هذا العيب .

ويمكن أن نضيف إلى ما ذكره المازني أسباباً أخرى وهي :

١ — قلة المعاني في ذهن الكاتب ، فيلجأ إلى التكرار ليطيل .

٢ — ما تتطلبه الكتابة للصحف من العجلة ، ورغبة طه حسين في أن يخوض في كل موضوع ، سواء كان ملماً به أو غير ملم .

٣ — الشك عند المكفوفين واتخاذهم الحيلة والحذر ، وقد كان طه حسين يرتاب في كل شيء . يرتاب في أن يكون القارئ قد أخطأ الفهم ، أو غفل عن القصد ، أو سها عن الحديث ، فيكرر ثم يكرر حتى تطمئن نفسه ويطيب خاطره من ناحية القارئ . وبمرور الزمن أصبح التكرار عنده عادة لا يستطيع الانفكاك عنها .

وقد انخرط طه حسين في سلك الكتاب السياسيين عقب مجيئه من أوروبا ، وانضم إلى حزب الأحرار الدستوريين لعلاقته الشخصية الوثيقة بمعظم أعضاء هذا الحزب . ولم تمنعه وظيفته الجامعية من ذلك ، لأن الجامعة إذ ذاك لم تكن تتبع الحكومة .

ولما ضمت الجامعة إلى الحكومة انقطع عن الكتابة في الشؤون السياسية ، وعكف على الدراسات الأدبية إلى أن أرغم على ترك وظيفته الحكومية سنة ١٩٣٢ فرجع إلى الخوض في السياسة منضوياً تحت لواء الوفد . وحرر في صحيفة كوكب الشرق ثم في الوادي . وكان يختار لكل مقال عنواناً لا يزيد على كلمة واحدة مثل نزاهة ، مساواة ، عيد ، جزاء ، تقاليد ، استعطاف ، ثم ، نداء وهكذا .

ولا ينبغي أن المقالات السياسية تحتاج إلى العناوين المؤثرة المهيجة ، ولم تكن هذه العناوين القصار لتترك في نفوس الجماهير أى أثر . أضف إلى ما تقدم أن المقال الواحد كان يستغرق حوالى أربعة أعمدة . وهذا كفى لبادخال السأم والملل إلى نفوس القراء الذين هم بحاجة قصوى إلى التركيز والإيجاز ، وبخاصة في المقالات السياسية . ومما كتبه إذ ذاك مقال تحت عنوان « مشكلات »^(١) جاء فيه :

« نعم ، ليست مشكلة واحدة ، ولا مشكلتين . إنما هي مشكلات عدة تشغل الوزارة في هذه الأيام ، أو قل تشغل أبطال الوزارة . فلا يزال بين الوزراء قوم متواضعون لم يخلقوا لأنفسهم بعد مشكلات تعنيهم وتؤرق عليهم ليلهم » .

(١) كوكب الشرق في ٢٧/١/١٩٣٤ .

« فلسنا نعلم أن لوزير الأشغال مشكلة ظاهرة ، ولسنا نعلم أن لوزير المواصلات مشكلة صارخة ، ولسنا نعلم أن لوزير الزراعة مشكلة تعلن نفسها إلى الناس . وقد تكون هؤلاء السادة من الوزراء مشكلات لم تظهر بعد ، وقد تظهر غدا ، أو بعد غد . وقد تكون لوزير الأوقاف أيضاً مشكلة أو مشكلات لم نعلم بعد من أمرها شيئاً . ولكن هؤلاء السادة من الوزراء لا يزالون متواضعين إلى الآن ، لم يتحدثوا عن أنفسهم ، ولم يدعوا الناس إلى أن يتحدثوا عنهم . . . الخ » .

فلن نرى في هذه الفقرة غير إسراف في التكرار ، وإفراط في رص العبارات المتحدة في المعنى ، وإرسال الكلام كيفما اتفق وبأى شكل كان على نحو ما يفعل العامة في أحاديثهم اليومية . أما المعنى العام لهذه الفقرة فقد بلغ الغاية في التفاهة . وما هكذا ينبغي أن تكون المقالات السياسية .

وله تحت عنوان « حفلة » :

« كان وزير المواصلات قد أسر إلى الليل أمراً خطيراً ، وكان يريد ؛ كما قال الشعراء وغنى المغنون ؛ أن يجهل النهار ما أسر الوزير إلى الليل ، ولكن للشمس جواسيس يتحسسون الأخبار ، ويفضحون الأسرار إذا طلع النهار . فلم يكد فجر الخميس يطرد ليل الأربعاء حتى انطلقت ألسنة الصباح ؛ هذه الألسنة الطوال ؛ بما أسر وزير المواصلات إلى الليل . فعرف الناس ما عرفوا ، ولت الناس لم يعرفوا ، لأن الناس كانوا صاعين . ولكن سر وزير المواصلات إلى الليل لم يكن يلائم الإفطار أيضاً ، بل من المحقق أنه لا يلائم صوما ولا إفطاراً » .

« لم يكن سر وزير المواصلات يلائم صوما ولا إفطاراً ، ولا يناسب ليلا ولا نهراً ، لأن هذا السر لم يكن أقل من حفلة فخمة ضخمة ، رشيقة

أنيقة . كان فيها الرقص الحلو ، والغناء العذب ، والتوقيع البديع ، والطعام الشهي ، والشراب اللذيذ . وكان كل هذا في الليل ، أى حين لا يؤخذ المسلمون بالإعراض عن الأكل والشرب ، وما يشبه الأكل والشرب مما يفسد الصيام . ولكن هذا كله كان في ليل رمضان ، والناس يعرفون أن ليالى رمضان لا تحيا في بلاد المسلمين بالقصف والعزف ، ولا بالغناء والرقص وإنما تحيا بالذكر والصلاة والاستماع للقرآن . والناس يعرفون أن التقاليد لا تطعم الناس في ليالى رمضان ولا تسقيهم ما كان في مقصف وزير المواصلات من هذه الألوان التى إن أبحاثها تقاليد أوروبا وديانتها ، فان تقاليد المسلمين ودين المسلمين تحظرها حظرا لا شك فيه . . . الخ .

* * *

ولكن إذا كان أسلوب طه حسين في مقالاته السياسية على نحو ما رأينا من الضعف والإسفاف ؛ فان أسلوبه في كتبه يحظى بقسط من العناية يختلف من حين إلى حين ، مع ملاحظة أنه لا يخلو من التكرار ، ولكن ليس من النوع الذى مربنا في قصة المعلمين ، أو فيما كتبه تحت عنوان «مشكلات» .

وامتاز طه حسين بدقة التصوير ، والحرص على تسجيل كل شيء ، والبراعة في سرد الحوادث التى لا نلتفت إليها ولا نكثر ثبها في ثوب جميل رائع . ونظرة واحدة إلى كتاب « الأيام » أو « أديب » تدل على صحة ما نقول . ولا شك في أن الفضل في ذلك يرجع إلى ذاكرته القوية التى استطاعت أن تحتفظ بما مر به في أدوار حياته الأولى منذ أن كان طفلا صغيرا يتسلل إلى حيث يجلس والده مع أصحابه ، ويقعد منهم مزجر الكلب وهم

عنه غافلون . إلى أن ذهب إلى الكتاب ، ثم شد رحاله إلى القاهرة ، وشرع
يتردد على صحن الجامع الأزهر واضعاً مرقوبه بجواره بعد أن يجعله على هيئة
خلف وخلاف . وحياته في حى الأزهر وتعاطيه للبسبوسة والعسل الأسود
وماء الطرشى الذى يحرش المعدة . لقد أجاد تصوير تلك المناظر والحوادث
إجادة لا تنقصها ريشة المصور البارع . وإذا تحدث عن أمر يتعلق بآفته
فانه يثير في نفوسنا الألم ويستدر العطف والشفقة ، وقد يسيل العبرات .
انظر إلى قوله في كتاب « الأيام » وإذن فقد أخذ اللقمة بكلتا يديه
وغمسها من الطبق المشترك ثم رفعها إلى فمه . فأما إخوته فأغرقوا
في الضحك ؛ وأما أمه فأجهشت بالبكاء . وأما أبوه فقال في صوت هادئ
حزين : ما هكذا تؤخذ اللقمة يا بنى . وأما هو فلم يعرف كيف
قضى ليلته .

« من ذلك الوقت تقيدت حركاته بشيء من الرزاة والإشفاق والحياء
لا حذله . ومن ذلك الوقت عرف لنفسه إرادة قوية . ومن ذلك الوقت
حرم على نفسه ألواناً من الطعام لم تبح له إلا بعد أن جاوز الخامسة والعشرين .
حرم على نفسه الحساء والأرز وكل الألوان التى تؤكل بالملاعق ، لأنه كان يعرف
أنه لا يحسن اصطناع الملعقة ! وكان يكره أن يضحك إخوته ، أو تبكى أمه ،
أو يعلمه أبوه في هدوء حزين . »

وهو بصفة عامة يجيد تصوير المواقف المؤلمة تصويراً يترك في نفس
القارئ أثراً عميقاً حتى لكأننا شاهدنا ما شاهد ، وحضرنا هذه المواقف

المؤلمة ، ولمسنا كل شىء فيها ، ورأيناها رأى العين . ومن ذا الذى يقرأ حديثه
عن أخته الصغيرة ومرضها ووفاتها ولا يجزع ؟ ومن ذا الذى يقرأ ما كتبه
عن أخيه وإصابته بالكوليرا واشتداد الألم عليه ووفاته ، وما أصاب أمه
وأباه من حزن عظيم ، ولا يتأثر إلى أبعد حدود التأثر ؟

ويمتاز طه حسين كذلك بالسخرية القاسية ، واتهم المر ، والدعابة
الحلوة . والفكاهة المضحكة .

* * *

طه حسين الناقد الأدبي

(١)

بدأ طه حسين حياته كناقد أدبي سنة ١٩٠٩ فنشر مقالا يخطئ فيه الشيخ عثمان المهدي الذي شبه الرياء بالإنسان في قول التهامي :

ثوب الرياء يشف عما تحته فاذا التحفت به فانك حارى
فزعم الشيخ عثمان أن الرياء مشبه ، والإنسان مشبه به ، ثم حذف المشبه به ، وهو الإنسان ؛ وأشير إليه بشيء من لوازمه وهو الثوب على سبيل الاستعارة المكنية الأصلية .

فقال طه حسين إن الشيخ عثمان اعتمد على صور مثلها له الوهم ، تاركا الذوق العربي جانبا كأن البيان ليس إلا مجازا واستعارة وتشبيها وتمثيلا .

وقال : لو عرف التهامي أن تطبيق بيت من الشعر على البيان سيوقع جملة من أساتذة المعارف في خطأ مخجل لتنكبه جانبا ، أو لأوضح سبيله في التشبيه أو الاستعارة فأتاهم بالأداة ووجه الشبه . بل لو عرف أساطين البلاغة كالجاحظ وأبي هلال وعبد القاهر أن قوما سيتناولون البيان بمثل هذا التخليط لطووا دونه كشحا ، وضربوا عنه صفحا ، ولتبرأ الجاحظ من بيانه وتبيينه ، ولعق أبو هلال صناعته ، ولجحد عبد القاهر أسرار بلاغته . ثم طلب من الشيخ عثمان أن يبين كيف يمكن أن يكون الالتحاف بالإنسان ، ومتى كان العهد به في نظم العرب ونثرهم . واتهم الشيخ عثمان ومن نهج نهجه بأنهم قوم لم يعرفوا مذاهب الشعر ، ولم يدفعوا إلى مضايقه .

وختم مقاله بهذه العبارة « هذا قسطك اليوم ، ولعله يكفيك . على أننا نبيح لك المناقشة إن قبلت الصحف سخفك » .

* * *

وكان بين صحيفة « مصر الفتاة » وصاحبها يوسف المويلحي ، وبين صحيفة « المؤيد » وصاحبها الشيخ علي يوسف خصومة قديمة عنيفة ، لذلك وجد طه حسين الباب مفتوحاً أمامه ليهاجم كتاب المؤيد بحق وبغير حق ، ويسفه آراءهم ويخطئها ، ويرميهم بالجهل والغباء ، ويلصق بهم كل تقيصة .

وفي سنة ١٩٠٩ كان أبو بكر لطفى المنفلوطى شقيق صاحب « النظرات » ينشر مقالات في « المؤيد » تحت عنوان « اللزوميات » بامضاء « المعرى » وكان أحمد حافظ عوض صاحب « كوكب الشرق » فيما بعد ينشر تحت عنوان « القياسات والاستنتاجات » بامضاء أبي فصادة . وكاتب آخر ينشر تحت عنوان « دلو بين الدلاء » بامضاء « الصياد » .

فسمع طه حسين بأن من ينشر تحت عنوان « اللزوميات » هو المنفلوطى ، ولم يتبين حقيقة الأمر ، فبادر إلى نقد ما ينشر تحت العنوان المتقدم على أنه صادر من صاحب « النظرات » كما نقد الكاتبين الآخرين . مثال ذلك مقال له نشر ^(١) سنة ١٩٠٩ وجاء فيه :

« ومهما أكثر أبو فصادة من أقيسته ، وأطال أبو العلاء في لزومياته ، ومهما بالغ كلاهما في الإخفاء وانتحال الأسماء ، ومهما نصبت لأحدهما الشباك ، واختلفت في ثانيها الآراء ، فإن كثيراً من الناس يعرفون من هما ، ولا ينظرون إلى أقوالهما بتلك العين التي يريدانها ، عين الإعجاب والإكبار . لا أقول

لأن أقوالها ساقطة ، ولكن لأنها لم تعد ما تفيض به أنهر الصحف دائماً من المقالات المألوفة .

« فقد كنا نقرأ النظرات والأسبوعيات فتبلغ من قلوبنا أضعاف ما تبلغه منها اللزوميات الآن . ولقد كنت أمقت المؤيد كل المقت إلا يوم تنشر فيه نظرة أو أسبوعية . فقد علم الله أنى كنت أشغف به كل الشغف ، وأقبل عليه كل الإقبال . ولا بدع فإن الذى كلفنى عرق القربى إلى مغنى البسفور والبيلفيدير ، ومهرجان النيل ؛ هو بعينه الذى يكلفنى قراءة المؤيد يوم تنشر فيه مقالات هذا الكاتب الكبير ، وقراءة المقطم يوم تنشر فيه قصائد ولى الدين يكن ، ولا أجد فرقاً بين مقالة الكاتب المسترسل ، وقصيدة الشاعر المفلق ، وألحان المغنى المطرب ، وأنعام العواد المبدع ، وذلك الحديث الذى يقول فيه الشاعر :

وحديث أئذه وهو ممّا تشتهي النفوس يوزن وزناً
منطق صائب وتلحن أحيا نا وخير الحديث ما كان لحناً

« كل هذه الأشياء تنقسم قلبى ، وتستخف لى على السواء ، لأن نزع الليل إليهن واحد ؛ هو حب الجمال والشغف به . »

« كذلك كنا نقرأ لأبى فصادة أيام كان إنساناً ما ، يملأ قلوبنا إعجاباً ، ونفوسنا إكباراً . أما الآن وقد أدمج نفسه فى هذه الصورة الصغيرة ، واستمار لها هذا الثوب من الريش ، فقد صغرت معه أقيسته ، وانكشت معه نتائجه . »

« أجل ! إنه كثيراً ما يغفر ويطنطن بأسماء الفلاسفة والحكماء من اليونان والرومان والعرب والفرنج . ويرى أن لن يكون الإنسان حكيماً ولا فيلسوفاً حتى يقرأ ما لهؤلاء بلغاتهم . ولكننا بالرغم منه نرى أكنم
(٧ - طه حسين)

ابن صيفي ، وعامر بن الظرب ، وقس بن ساعدة ؛ من أكبر الحكماء غير مدافعين ولا منازعين . وما نعلم أن منهم من قرأ ما لهؤلاء .

« على رسلك أبا فصادة . لا ترع ، إني لا أريد صيدك ، ولا أدري لم تنصب لك الشباك . فقد علم الله والناس أنك لا تقع من أحد موقعا . فثلك ريش ، وثلك يذوب على أسلة قلمك حين تكتب ، فيمثل لنا ضعف عقول الطير . وما أحسبك إلا ستقضى بعد حين . »

« إن الذي يعجبني من حكيمة المؤيد انتفاخ كليهما في المقدمتين ، حتى يكاد أحدهما ينبقر . ثم تضأولهما في المقصدين حتى يكاد أحدهما يفنى . وكل هذا نتيجة شيء واحد ؛ هو التصنع والاتحال . »

« وما أعجبتني قط دعوى عريضة . . . ولو قام في تصديقها ألف شاهد »
« الآن أدين أبا العلاء بما كان يديننا به منذ عام أول فيما كنا نتحلله لأنفسنا من الأسماء والرموز ، ولكني لا أكاد أسأله ما خطبك حتى يظهر لي الجواب ناصعا واضحا : إني رأيت الناس ينخدعون بالألقاب والأسماء ، فعمدت إلى شيء من ذلك . »

فنشر المنفلوطي كلمة تبرأ فيها مما يكتب تحت عنوان « اللزوميات » بامضاء « المعري » وذكر أنه ليس هو الذي يحرق هذه المقالات .

وكان الأخرى بطله حسين أن يقتنع بهذا ، وكيف قلعه عن مهاجمة المنفلوطي ، ويوجه نقده — إن شاء — إلى صاحب اللزوميات . ولكنه لم يقتنع بتكذيب المنفلوطي ، بل بلغ به الأمر أن نشر كلمة أبدى فيها ارتياحه وعدم اقتناعه بما ينفيه المنفلوطي عن نفسه . وذكر أنه ما زال مصرا على

نسبة هذه المقالات إلى المنفلوطى . وهذا من أعجب العجب . أما نص كلمته التى وجهها إلى صاحب النظرات فى هذا الصدد ، فهو :

إلى أبى العلاء الثانى ^(١) :

قرأت بالأمس تكذيبك لما كتبتة فى مصر الفتاة . وليست المسألة نظرية يجب أن تتقارض فيها الأدلة ، ولكنى أقول لك إنك حر فيما تنق عن نفسك وتثبت لها . وأنا حر فى أن أصرح بما أعتقد ، والسلام « طه حسين .

ومن الواضح أن المنفلوطى لم يكن كاذباً حين تبرأ مما ينشر تحت عنوان « اللزوميات » ، ولم يكن يخشى على نفسه من نقد طه حسين الذى لم يكن نقداً لامن قريب ، ولا من بعيد ، وإنما كان مجرد شتائم وسباب ، وعبارات نابية وتعريض قبيح . ولكن طه حسين أراد أن يشتهر على حساب كاتب كبير كالمنفلوطى ، فراح يكيل للرجل المثالب والنقائص ، ويصفه بأشنع لأوصاف ، ويتهم منه ويسخر به .

(ب)

بين طه حسين والمنفلوطى

اعترف طه حسين فى مقال سابق بأنه كان يقبل على قراءة ^(٢) « المؤيد » يوم تنشر مقالا لمصطفى لطفى المنفلوطى ، وذكر أن مقالات ذلك الكاتب الكبير كانت تبلغ من قلبه مبلغاً عظيماً . ولم يعض على هذا الاعتراف عام واحد حتى بدأ يكتب سلسلة مقالات تحت عنوان ، « نظرات فى النظرات » :
تهم فيها المنفلوطى بالجهل والسرقة الأدبية والكذب والتغريب وتضليل

(١) مصر الفتاة فى ١٩٠٩/٩/٢ .

(٢) مصر الفتاة فى ١٩٠٩/٨/٣١ .

اقرء . وحشا كتابته بالألفاظ النابية والعبارات الجارحة . قال في « النظرة الثانية »^(١) .

وضع صاحب النظرات لفصول كتابه أسماء شتى بين اجتماعيات ودينيات وعمليات إلى غير ذلك . وأريد أن أبدأ بنقد آرائه في فروع الكتاب كله نقداً علمياً محضاً . ثم أعيد الكرة عليه فأنقد فيه العبارة والاستعارة ، والخيال والاستعمال . وإن كان الكتاب ليشتمل على خطأ من هذا النحو كثير . وما النظرات إلا كتاب كثرت فيه الحسنات والهنات . أجل ! لم ينبغ صاحب النظرات ، وما هو إلا كغيره من الكتاب الذين رفعهم الوهم في العيون ، وسيعطيهم اليقين من المسكاة ما يستحقون .

أول عيب آخذه على صاحب النظرات أنه مشغوف كل الشغف بذات غيره . كما أن العيب الثاني فيه أنه منكر كل الإنكار لذات نفسه . فان السرقة في كتابه شائعة شيوعاً فاحشاً ، ولست غالباً إن قلت إن اسم كتابه مختلس من ديوان « النظرات » للرافعي . ولقد أرى كما سيرى القارئ أن في الكتاب فصولاً سُلبت قسراً من أصحابها ، ونسبت إلى صاحب النظرات ميناً وزوراً ، بينما أبحث عن كثير من فصول الكاتب الخاصة التي كانت تذاع في المؤيد ولا سيما السياسية فلا أجد لها في الكتاب أثراً .

أما السرقة فعذر صاحب النظرات معروف ، وهو قلة المادة ، وضيق الحظيرة . وأما غلوه في الإنكار لذات نفسه فهو ما أسأل عنه وأتلس له العذر فيه . وهنا يجب على أن أذكر حقيقة تاريخية تضاف إلى ترجمة المؤلف ، فيقال : كان يرى الرأي يعتقد أنه الحق ، ثم لا يأنف أن يبيعه

بشمن بخس ويشتري به رواج الكتاب . فما كان أشد حاجته إلى شيء من شجاعة النفس قليل .

العيب الثالث من عيوب النظرات أن صاحبها أبعد الناس عن توخي الحقيقة ، وأحبهم لاصطناع الخيال سبيلا إلى غايته حتى في العلم لا يبالي إن راقه الخيال أصاب الحقيقة أم لم يوفق إليها . أنا لأأذم الخيال من القصاص يأخذون به أعنة النفوس إلى الفضيلة ، ويكبحون به جماحها عن الرذيلة . ولا أكرهه من الكتاب والشعراء لأنهم يغرسون به في قلوب العامة حب الخير . وإنما أمقته كل المقت إذا أقامه صاحبه مقام البراهين القاطعة في العلم ، يخدع به الناس عن آرائهم وعقائدهم فيثير فيهم الشك ، ويخدع في نفوسهم قوة اليقين . أمقته كل المقت ، وأعتقد أن من يصطنعه كذلك ليس إلا خادعا للأمة يجب أن يكون نصيبه من اللوم أضعاف نصيبه من الثناء . وليس عجيبا أن أسفق على الماضي في هذا السبيل أن يزل أو يناله فيها العثار ، بل أقول إن صاحب النظرات كثيرا ما أخطأ بهذا السبب في ترتيب خياله خطأ فاحشا . وإن له أفكارا هي أشبه شيء بماس بيرا ، يأخذه الناس جوهرها ويلقونه حجرا كما يقول هو في شعر بعض الشعراء . ذلك بأنه اصطنع الخيال وهو غنى عنه ، واطرح الحقيقة وحاجته إليها أشد ماتكون .

العيب الرابع : أن لصاحب النظرات ألفاظا ومعاني وأساليب تشغفه كل الشغف ، فلا تزال تتردد في كتابه حتى تمجها الأسماع ، وتغافها الطباع . وسيرى القراء من ذلك شيئا كثيرا . ولكني لا أنسى أن أقول إن بعض الأساتذة قد سموا صاحب النظرات « لآياما » لتردد هذه الكلمة في كتابه حتى لا يخلو منها مقال .

الخامس والسادس : أن الكاتب على شغفه بجودة العبارة ، وحسن الإشارة ، وكلفه بأن يكون كلامه فخما سهلا ، وخفيفا جدلا ، وأن يكون

أسلوبه أنيقا ولفظه رشيقا ، كثيرا ما يلجئه الحرج إلى سخف في الاستعارة والتشبيه ، ويضطره إلى أن يكون كلامه رثا غثا ، وأسلوبه ساقطا مبتذلا . وكثيرا ما تحمله قلة المادة اللغوية على اللحن الفظيع ، والغلط الشنيع ، والخطأ المخجل في الاستعمال كما سيرى القارئ .

السابع والثامن : أن أبا العلاء الثانى مولع بكاذب العناوين ، وساقط الألقاب وإن أبى علينا ذلك في لزومياته كل الإباء . فلو قرأت ما اشتمل عليه الكتاب من ضخام الألقاب العامة والخاصة لأنكرت فلاسفة الغرب جميعا لا أحاشى منهم أحدا . فلست أعرف بينهم من استطاع أن يكتب في جميع الفنون التى كتب فيها فيلسوفنا الحكيم من اجتماع ودين وأخلاق وقصص وعلم وغير ذلك . ولكن وأسفاه ! لا تكاد تم الكتاب حتى تحمد الله على السلامة ، وتقنع من الغنيمة بالإياب .

أنا ومن سألته من الأدباء ، وفيهم الأساتذة والعلماء ، لا نعرف لصاحب النظرات فى كتابه رأيا خاصا وإن كثرت الأنانية فى أقواله . كما أنا لا نعرف تلك الشخصية فى الكتابة التى انتحلها له الصحف المطرية إلا أن تكون لآلاء السراب الكاذب .

وله من مقال تحت عنوان :

النظرة الشائنة

منزلة النظرات من الكتب المحدثه^(١)

أنا حائر كل الحيرة فى كتاب النظرات وتقسيمه الذى لا أعرف له قاعدة ولا أصلا . وأخشى إن فاجأت القراء بهذا الحكم الصحيح ، وأنزلته من قلوبهم منزلة اليقين أن تقطع أسباب الثقة بينهم وبين كتاب الصحف المقرئين

الذين رفعوا صاحب النظرات إلى مكانة من الأدب والفلسفة لم ينلها كاتب ولم يسم إليها حكيم .

خدعهم ألقاب لم يفهموها ، وعناوين لم يتبينوها . لو قرأوا الكتاب لعرفوا أن مكانه من الكتب الأخرى مكان الأصداء المختلطة من الأصوات المختلفة ، وأن الكتاب ليس إلا مزيج الصالح والفاسد من آراء القدماء والمحدثين .

إن صاحب النظرات قد أخطأ خطأ فاحشاً في ترتيب ما اشتمل عليه كتابه من الفصول . وفي تسمية كل طائفة منها بما يلائمها من الأسماء . فاختص بالعمليات مثلاً خمسة فصول يرجع اثنان منها إلى الأدب ، وثلاثة إلى الفلسفة . وجعل هذه الفصول مقابلة لأمثالها من سائر فصول الكتاب . وليس لى أن أبني هذا الخطأ إلا على أمرين أحدهما أو كليهما . فاما أن يكون صاحب النظرات قد أصابته الغفلة عن اصطلاح العلم فأخطأ قصد السبيل . وإما أن يكون الغرور وحب الصيت قد لعبا برأسه فكلفاه أن يملأ كتابه بالأسماء والألقاب الضخمة وإن اختلفت وتناقضت ليستخف بها عقول الناس ، ويستهوى قلوبهم وأفئدتهم . وإما أن يكون قد جمع السقيمين وباء بالإثمين « وحسبك من شر سماعه » .

إن كتاباً يجمع من العيوب ما ذكرته خليك أن تقتحمه عين الأديب ، وينبو عنه سمعه وطبعه . بل أعلم أن كتاباً ليس لصاحبه فيه رأى خاص يثبته ، وإنما هي آراء وألفاظ مختلفة متخلفة من الكتب والصحف السيارة يجب ألا يعده من كرام الكتب ونوادرها إلا الجاهلون .

إذن فليست النظرات إلا كتاباً كبقية الكتب التى يرفعها الوهم ويضعها اليقين .

وله من مقال تحت عنوان :

النظرة الرابعة^(١)

ماس بيرأ فى كتاب النظرات

إن كان صاحب النظرات ممن يسمع لهم صوت ، أو يؤخذ لهم برأى ، فلا جرم أنه واطر كل الترة لأصحاب هذا المعدن الخداع منذ أكسد عليهم تجاربهم ، وأفسد عليهم أمرهم لطول ما اتخذ هذا الجوهر الكاذب مثلاً لخداع المظهر عن المخبر . وإلا يكن من أولئك فهى عناية الله قد وقت هؤلاء الناس شر الإفلاس ، وكفتهم بين التجار نكبة البوار :

فظلوا ولما يعرف البؤس دارهم ورب سهام أقصدت من يرشها
الآن أمالىء صاحب النظرات على رأيه فى معنى العلم ... الآن أمالئه على جهله بمعنى العلم وغفلته عن اصطلاح الناس فيه . أمالئه على كل ذلك ريثما أجلو غشاء الغرور عن عينه ، وأزىل غطاء الانخداع عن قلبه ، فيرى من أمره ما رآه الناس من قبله ، ويحس من نفسه ما أحسه الناس وإن كان عنه غافلاً :

ومن جهلت نفسه قدرها رأى غيره منه ما لا يرى

يرى ويا شر ما يرى أن سهمه فى العلم نكس ، وأن صفقته فيها خاسرة ، وأن حظّه منه قليل . ويحس ؛ ويا سوء ما يحس ؛ ألم الضمير وعتب النفس عليه إن لم يكن لها من المنصفين .

خمس رسائل من العلم فى الكتاب لم يرفعن حقاً ، ولم يضعن باطلاً ،

ولم يأتين برأى سديد ، ولا بحث مفيد . ولم يبين قاعدة طريفة أو فائدة
ظريفة . تفرق بين الجمل الغفير من تنظيم ونثر على ركة في اللفظ ، وقبح في
التصوير ، لا يرفعن صاحبهن من العلم إلى مكانة الطلاب الأذكياء بله التواضع
الباحثين .

سألت القدماء فيما تركوه ، والمحدثين فيما ألفوه ، واختلفت إلى الأساتذة
في مدارسهم ، والأدباء في مجالسهم ، وإلى العلماء في حلقاتهم ، والأولياء
في خلواتهم ، وإلى المجتبان في مجامعهم ، والظرفاء في ملاهيهم ، فلم أجد عند
العرب من فنون الفلسفة والآداب ، ولا عند المسلمين من فنون الشرع والدين
فنّاً خاصاً يقال له فن العلم إلا عند صاحب النظرات في مختلف فصوله ، ومختلط
معقوله ومنقوله .

أخذ في نقد الكتاب وما اشتمل عليه من آراء صاحبه فصلاً فصلاً .
فقد طالت بنا المقدمات حتى مللتها وملها القراء ، غير أن في ذلك معذرة ؛
هي أنني لا أنقد الكتاب نقداً علمياً أو أدبياً خصب ، وإنما أنقده كذلك
في الأخلاق والآداب التي صدر عنها من صاحبه ، فلا بأس على إن نعمت من
أخلاق الكاتب شيئاً قليلاً أو كثيراً . فما الغرض من النقد إلا الإصلاح .
وأول ما أبدأ به في نقد الكتاب : العمليات ، فأقول :

كنت أود أن يكون لصاحب النظرات في هذا الفصل رأى أنقده ،
أو بحث أحده ، ولكنه مع الأسف ، أو مع السرور لم يأت بشيء جديد .
ولست أرى القول تردده اليوم وتصدف عنه غداً إلا سفاهاً وخطلاً .

وبعد فقد أثبت هذا الكاتب لنفسه في أول هذا الفصل صفات
لو اجتمعن له لكان أكبر الحكماء المصلحين . قال أرشده الله :

« أنا لا أقول إلا ما أعتقد ، ولا أعتقد إلا ما أسمع صداه من جواب نفسي . فربما خالفت الناس أو بعض الناس في أشياء يعلمون منها غير ما أعلم ومعدرتي إليهم في ذلك أن الحق أولى بالمجاملة منهم ، وأن في رأسى عقلا أجله عن أن أنزل به إلى أن يكون سيقا للعقول ، وريشة في مهب الأغراض والأهواء . »

وصف بديع ، وثناء جميل لو صح لهذا الكاتب منه قليل أو كثير ، ولكنه كما يقولون « جوع وأحاديث » فلست أدري كيف تجتمع له هذه الصفات بعد ما أخذنا عليه من السيئات التي أضفناها إلى ترجمته . فقد أخذنا عليه أنه يدعو الناس إلى ما لا يحب ، وينكر ذات نفسه ابتغاء رواج ما يكتب ، وينتحل الأكاذيب في طلب الصيت والشهرة .

أيها الكاتب أصغ إلى واسمع لقولى ، فانك وإن نيفت على الثلاثين أحوج إلى النصيحة ممن لم يبلغ العشرين . اعلم أن الكاتب المصلح لا يرغب في الكذب والخداع ، ولا يجنح إلى الخب والرياء ، ولا يأنف أن يعترف للناس بما عنده من كواذب الأخلاق ما دام عاملا على إجلائها عن نفسه .

أيها الكاتب المغرور ، ليس بنافعك أن تحوكم لنفسك من الحمد بروداً ، وتنظم لها من الثناء عقوداً .

وله من مقال تحت عنوان :

النظرة الخامسة^(١)

الكذب والتغوير في كتاب النظرات

أيها الكاتب المجيد ! عم صباحا أو مساء ، واشرب هواء أو ماء . نل بيديك السماك ، وإذا استطعت فانطح بقرنيك الأفلاك ، أو ساج في البحر الأسماك فلن أتأثر بالنقد إلا إياك .

أيها الكاتب ، إن أكن دعيّا في الأدب فاني لم أخدع الأمة عن نفسها باسم كتابها المجيد ، ونوابغها المبرزين . لم أسع إلى المويلحي ضارعا في كلمة ثناء أو تقرّيط حتى إذا نلتها منه شوهت خلقها بالحذف والزيادة لتكون عند رضا نفسي ، لا رضى صاحبها .

في ذات يوم وقفت من المويلحي موقف الضارع ، وفي يدك رسالة من حافظ في تقرّيط كتابك ، فاستجديت الرجل مثلها ، فأملى عليك من غير تاريخ ولا إمضاء ولا عنوان مارأك له أهلا وبه حجيا . غير أن طمعاً بك في الصيت والشهرة ، وظاءً بنفسك إلى الفخر الكاذب لم يزالا بكلمة الرجل حتى جعلها كما هي الآن في كتابك . وقد خرجت عن نصابها ، وامتزجت بأخلاق من غير معدنها . جعلت الرجل أخاك ، وما علمته من الرياء بحيث يدعوك أخاه الكريم ، ولم يرك إلا مرات ثلاثا . جعلته كذلك يسير مع نظراتك خطوة خطوة ، وما علمته قرأ منها إلا كما يقرأ غيرها مما ينشر في الصحف .

أيها الرجل؟ ظلمت المويلحي لأنك انتحلت عليه ما ليس له . وظلمت الصدق بأنك قتلته في صدر كتابك وندبت إلى إحيائه في بعض مقالك . وظلمت نفسك بعد كل ذلك لأنني سأسجل عليك هذه الحقائق التاريخية لتضاف إلى ترجمة حياتك . فيقال بعد عمر طويل : كان - رحمه الله - يسلك إلى الصيت كل سبيل . لا يكره أن ينتحل الأكاذيب على الأدباء في تقريظه والثناء عليه ، حتى إذا ربأوا بأنفسهم عما يقصد بهم إليه تهافت على الاعتاب متشفعا ضارعا حتى يأمن العار » .

« وكان - رحمه الله - أبعد الناس عن حفظ الجليل وشكر العارفة . لا يشعر بوجه الصواب فيما ينفعه ويضره » .

• • •

وله من مقال تحت عنوان :

النظرة السادسة^(١)

الضاد

قرأت هذا الفصل فلم أنكر ما فيه من فاحش الأغاليط وغريبها ، لأن عهدى قديم بأولئك الادعياء الذين لا علم لهم باللغة ، ولا سهم لهم في فنونها كما أن وقوع هذه الأغاليط من صاحب النظرات لم يرعنى لأن عهدى به كذلك في أكثر فصوله . ولست أريد الآن إلا أن أبين للقراء موضع السخف المنكر من آراء هذا الكاتب في هذا الفصل وإن كانت فاحشة . قال :

« إذا كان العرب الأولون يعبرون بالرأس عن مئين من الأعضاء والعظام والأعصاب والشرابين ، فلم لا نعبر نحن بالضاد عن ثمانية وعشرين حرفاً ، ونحن عرب مثلهم تجرى في عروقنا دماؤهم كما تجرى في عروقهم دماء آبائهم ، فسهمنا في الضاد سهمهم ، وحقنا فيها حقهم » .

« لم يضعون الألفاظ للتخاطب والتفاهم ، ولا نضعها نحن لمثل ماوضعوا له ؟ وحاجتنا أكثر من حاجاتهم ، ومرافقنا أوفر عدداً من مرافقهم وأكثر فصولاً وأنواعاً ؟ » .

خطأ جداً أيها الكتاب ماذهبت إليه من أنتاعرب كالأولين ، نستطيع أن نقاسمهم حظهم من اللغة ، ونشاطهم قسطهم فيها . خطأ لأنك لم تقم عليه برهاناً ، ولم تؤيده بدليل ، ولأن الباحث المستبصر لا يطمئن قلبه إلى أن هذه الأجيال المختلفة في الأذواق والأخلاق ، المتباينة في الطباع والآداب تجرى في عروقهم دماء جيل واحد ، هو جيل العرب الأولين من يعرب ونزار بعد ما اختلطت الأنساب واتصلت الأسباب ، واشتبكت وشائج الأرحام بينهم وبين غيرهم من الأمم بعد الإسلام ، فلم يبق منهم الآن إلا مرقف أو هجين . على أن صراحة النسب وحدها لا تستطيع أن تعطيك من الحق في إصلاح اللغة وتهذيبها ما كان للعرب أنفسهم ، وإنما السليقة العربية الصحيحة هي التي تستطيع وحدها أن تعطيك هذا الحق ولو كنت أعجمياً أو مدخولاً في نسبك . وآية ذلك أن أئمة العربية حينما أرادوا نقل اللغة لم يأمنوا عليها العرب كافة لمجاورة أكثرهم للأمم الأعجمية ، بل أبوا أن يأخذوها إلا عن قليل ممن أئمنوا جوارهم للأجنبي ، وعدها

فساد الدخيل .

فأين منا الآن من يستطيع أن يحسن اللغة أو يجيدها نطقاً؟ أما والذي لو شاء جنبك الهفوة ، وعصمك من الكبوة ما شهدت حفلاً ، ولا سمعت شاعراً ولا خطيباً إلا تقطعت نفسي حشرات لتغير الطباع واللهجة ، وفساد السليقة والفطرة . فهل تريد أن تعطى هذا المزيج من الناس في اللغات والأجناس حق الإشراف على اللغة بالإصلاح والتهديب؟ أما أنه لو كان لك سهم من آداب اللغة مارأيت رأي أو لك الحق الجاهلين ، ولا جريت معهم في مضمار .

أريد أيها الكاتب أن يكون لك حق الإصلاح في اللغة بالوضع والاشتقاق والتعريب؟ فلا أقسم بالجهل والتخليط ، والالحن والأغاليط إن ما أخذناه عليك من الخطا اللفظي المنجل في مقال « الضاد » وحده ليحول بينك وبين ما تريد . الحق أقول أيها الكاتب فصدقني إن بك مسا من التسرع كثيراً ما ينسيك الحق . ولو أن بك شيئاً من الأناة يرجح هذا التسرع أو يعدله لأمنت شططا كثيراً .

الآن يخيّل إلى أن غشاء الجهالة قد زال عن عينيك بعض الشيء ، فأصبحت تبصر الحقيقة واضحة بعض الوضوح .

جل معي أيها الكاتب جولة ثالثة في مبحث آخر أراك قد جارت فيه الوهم والخيال حتى كبوت وأصبح نهوضك غير ميسور . تقول - وبئس ما تقول - إن حاجات العرب قد ضاقت عن أنفسهم فتفككها بوضع المئين من الأسماء للأحاد من المسميات ، وأن لغتنا قد ضاقت عن حاجاتنا فلم نجد من الألفاظ ما يشفي العلة ، أو ينقع الغلة . وترى هذا من الغبن الفاحش .

سخف ساقك إليه الوهم ، وأوقعك فيه الخيال . فليس من الناس —
حاشا البله والمعمرين — من يعقل أن قوما زادت لغتهم عن حاجتهم
يجهدون أنفسهم في وضع كثير الأسماء لقليل المسميات ، لالشيء إلا
الدعابة والتفكهة .

لم تضق حاجات العرب عن لغتهم قط ولكنك جهلت ، ولن تضيق لغتنا
عن حاجاتنا عوض ولكنك عجلت . وإن شأقتك الحقيقة فأعلم أن اشتراك
الألفاظ وترادفها صفتان لا تخلو منهما لغة . وليس مصدر ذلك التفكهة
والدعابة كما تظن ، وإنما هي الأذواق تختلف والطباع كثيراً ما تفرق ،
والخواطر قلما تتوارد على شيء واحد . فربما رأى زيد حيوانا فسماه أسداً ،
ورأى عمرو هذا الحيوان فسماه الغضنفر . وإذا عرفت ما كان عليه العرب
في الجاهلية من تنأى المواطن ، ثم عرفت بعد ذلك ما أحدثه الإسلام من
تقارب اللغات واختلاطها أيقنت بأن كثرة المترادف والمشارك قد كانت على
العرب أمراً مقضياً .

وله من مقال تحت عنوان :

النظرة الثامنة^(١)

الحق والسخف في كتاب النظرات

أيها الكاتب المجيد : صفت لك الأوقات وشملتك النعم وطابت لك
الذات ، وعدت لك النعم ، ووفقت في كل يوم إلى تأليف كتاب تأمن فيه
اللوام وتكفي العتاب . وأصبت من الأدباء مقرظاً مطرباً ، ومن العلماء

مادحاً مثنياً . وصادفت من النقاد صامتا مغضيا ، ومن الحساد خائبا مستخزيا .
وأطلق الله لسانك بما يرفع شأنك وإن كان من أقاويل الزور وأحاديث
الغرور ، فكل ذلك ميسور .

مع الأسى والأسف أيها الكاتب المجيد يستقبلك اليوم هذا المقال إذ
أنت غاد في عملك ، مستغرق في أملك ، قد أصابك النكول عن أن تظهر
للناس كلمة الكاتب الجليل « المويلحي » مصورة برسمه وخط يده كما طلبت .
إليك ، وأصبحت من الناس بين ساخر منك ، وزار عليك .

مع الأسى والأسف أيها الكاتب ! أنت واهم كل الوهم ، وعابث
كل العبث إن زعمت أن الناس سيظنون بسكوتك خيراً ، ويذهبون
باحجامك مذهباً في التأويل إلا العجز والنكول . فأناشدك الصدق ،
واستحلفك بالصراحة والوفاء ، أو الخداع والرياء إلا ما أظهرت للناس الحق
وكشفت لهم عن وجه الصواب .

يضحكني أيها الكاتب منك مقال زيد وعمرو ، ذلك المقال الذي لا أعرف
لك فيه رأياً ولا مذهباً حاشا الحق والجهل اللذين هما كل ما آخذه عليك
في هذا الفصل ، وأثبتته لك بالدليل .

تقول في أوله « أراد داود باشا أحد الوزراء السالفين في الدولة العثمانية
أن يتعلم اللغة العربية ، فأحضر أحد علمائها وأنشأ يتلقى عليه دروسها عهداً
طويلاً . فكانت نتيجة علمه النتيجة الآتية :

سأل شيخه يوماً : ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحق أن
يضره زيد كل يوم ويقتله ويرح به هذا التبرج المولم ؟ وهل بلغ عمرو
من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه وضرب ضاربه ضربة
تقضى عليه القضاء الأخير ؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يتحرق غيظا وحنقا ، ويضرب الأرض بأقدامه . فأجابه الشيخ : ليس هناك ضارب ولا مضروب ، وإنما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين . فلم يعجبه هذا الجواب وأكبر أن يعجز مثل هذا الشيخ عن معرفة الحقيقة في هذه القضية فأمر بسجنه . ثم أرسل إلى نحوى آخر فسأله كما سأل الأول فأجاب بنحو جوابه فسجنه . وما زال يأتي بهم واحدا بعد واحد حتى امتلأت السجون وأقمرت المدارس . وأصبحت هذه القضية المشثومة الشغل الشاغل له عن جميع قضايا الدولة ومصالحها . ثم بدا له أن يستوفد علماء بغداد ، فأمر باحضارهم فحضروا ، وقد علموا قبل الوصول إليه ماذا يراد بهم . وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل والحدق والبصر بموارد الأمور ومصادرها . فلما حصلوا في مجلس الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه ، فأجابه الرئيس : إن الجناية التي جناها عمرو يامولاي يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر مما نال . فانبسطت نفسه قليلا ، وبرقت أسارير وجهه وأقبل على محدثه يسأله : ما هي جنايته ؟ فقال له : إنه هجم على اسم دولتك واغتصب منه الواو ، فسلط النحويون عليه زيدا يضربه كل يوم جزاء وقاحته وفضوله .

فأعجب الوزير بهذا الجواب كل الإعجاب ، وقال لرئيس العلماء : أنت أعلم من أقلتة العبراء ، وأظلتة الخضراء ، فأقترح على ما تشاء . فلم يقترح عليه إلا إطلاق سبيل العلماء المسجونين ، فأمر باطلاقهم وأنعم عليهم وعلى علماء بغداد بالجوائز والصلوات .

أحسن داود باشا في الأولى وأساء في الأخرى . ولو كنت مكانه لما أطلقت سبيل هؤلاء النحاة من سجنهم حتى آخذ عليهم عهدا وثيقا أن يستبدلوا هذه الأمثلة البالية بأمثلة جديدة .

قال طه حسين : أنا لا أعرف لهذه القصة مصدرا ، وليس لى أن أبحث عن نصيبها من الصدق ومكانها من اليقين ، ولكننى أقول إن داود باشا - إن صححت هذه القصة - كان أسفه من ججا ، فإن رجلا يرغى ويزيد ، ويرق ويرعد ، أو بعبارة بلدية « يحمر ويصفر » فى مثال علمى يأبى إلا أن يجعله قضية مشكلة ينفق فى حلها أيامه ولياليه ، ويشغل بها عن أعمال الدولة ، يأخذ فيها العلماء إلى السجون ، حتى إذا خدعه رئيس العلماء فى بغداد بما يخدع به الصبية ثاب إلى الصواب . رجل هذه حاله ليس إلا أحق إن لم يكن مختل العقل . وأحق منه من يسوق هذه القصة السخيفة مساق البراهين فى العلم ، يخدع بها الناس ويحسب أنهم بمثابة يخذعون . بل أشد حقا من هذا وذاك من يود لو كان مكان هذا السفية فيأبى أن يخرج أولئك العلماء من سجونهم إلا أن يأخذ عليهم عهدا مؤكدا ليفرق هذه الأمثلة البالية وليبدلها بأمثلة قشبية رائعة .

مثل هذه القصة خليك أن يكون من الأسمار وأحاديث اللهو ، لا من طرائف الأفكار وبراهين العلم . ومثل هذه الدعابة التى أراك مفطورا عليها خليك أن يختص بها صغار الأطفال ، لا كبار الرجال ... فلا أقسم يا زور ، وأحاديث الغرور ، ما رزء الآباء فى الأبناء ، والأمهات بالبنات بأعظم من رزء العلم بمثلك ، وإنى عليك من هذا لمن المشفقين .

* * *

هذه بعض مقالات طه حسين عن النظرات . وقد كرر فى جميع مقالاته التى كتبها فى هذا الصدد وفى تقديمه لمختارات المنفلوطى ، ولبعض ما نشره

صاحب النظرات في المؤيد من مقالات يومية ، كرر في كل هذا ما اعتاد أن يسوقه من المطاعن والمثالب ، وعبارات الشتم والسب ، والألفاظ القبيحة والكلمات الجارحة وهبط في ذلك هبوطا فاحشا ، ونزل إلى مستوى لم يسبق له مثيل . وكان يطمع في أن يرد عليه المنفلوطي ولكن الرجل لم يفعل . وقد نشر أحد عشاق أدب المنفلوطي مقالا موجها إلى طه حسين تجت عنوان « إلى قتيل النظرات » جاء فيه ^(١) :

« لو كانت أخلاق المنفلوطي كما زعمت لقابلك بمثل ما تكتب . وأنت تعلم كما يعلم غيرك أن قلمه لا يضيق عن الكتابة ، ولكن قلما وقف نفسه على نشر الفضيلة وتسجيل الحقائق أرفع من أن يجاريك في وقاحتك وسوء أدبك . إن نفسا عالية كنفس صاحب النظرات أعلى من أن تنازلك في ميادين السفاهة . فكن في مأمن منه ، فانه لن يؤاخذك بما تكتبه ، ولكن لتعلم أنك أنت الذي عرضت نفسك لمثل من الناقين عليك » .

« أيها الكاتب ! ظننت نفسك شيئا مذكورا ، فلا تعجب إذا أصابك من غيرك ما لم تكن لتنتظره ، فان الغرور بالنفس مؤد إلى المهالك . وإذا سلمنا لك أن نظرات المنفلوطي لا تروق في عيون أمثالك ، أتعجب مقالاتك التي أقرأها فلا أدرك معناها إلا بعد عظيم من الجهد لما فيها من التعقيد » .

وقد تعرض المنفلوطي في حياته لحملات كثيرة من بعض حساده ، وإلى هذا الحملات يشير أحمد شوقي في رثائه له إذ يقول :

سيكن الأحبة والعدى وفرغت من حقد الخصوم ومن هوى الأشياع
كم غارة شنوا عليك دفعتها تصل الجهود فيكن خير دفاع
فاذا مضى الجليل المراض صدوره وأتى السليم جواب الأضلاع
فأفزع إلى الزمن الحكيم فعنده نقد تنزه عن هوى ونزاع

(ج)

بين طه حسين والرافعى

فى سنة ١٩١٢ نشر حفى ناصف خطابا موجها إلى مصطفى صادق الرافعى مقررظا فيه كتابه « حديث القمر » فذكر طه حسين فى مقال له أن الرافعى ألح على حفى ناصف حتى اضطره إلى تقريره بهذا الخطاب . وقد بادر الرافعى إلى تكذيب ذلك .

وقى سنة ١٩١٣ قرظ حافظ إبراهيم كتاب « حديث القمر » بقصيدة^(١) مطلعها :

قرأت كتاب حديث القمر فنعم الأديب ونعم الأثر
بداية هذا الفتى الرافعى نهاية كل أديب ظهر

فكتب طه حسين مقالا تحت^(٢) عنوان « حافظ وحديث القمر — أمدح أم هجاء ؟ » جاء فيه :

(١) الجريدة فى ٥ / ١ / ١٩١٣

(٢) الجريدة فى ٧ / ١ / ١٩١٣

« نعم ! إن حافظا لم يقرظ صاحبه بالأمس ، بل كان أبلغ منى في نقده ،
وإن احتاج من الجهة الخلقية إلى شيء من الصراحة حتى لا يخدع الجمهور ،
ولا يغرر بأغمار الناس ، فأين من التقريظ قوله :

فعند كتابك تحنى الرؤوس وتعيأ العقول وتعنو الفكر

ومتى كان الكتاب الذى يعي العقول كتابا حسنا ، أو سفرا محمودا ؟

ولو أننا تركنا لحافظ هذا البيت ونظرنا إلى الأبيات الجميلة التى رد
علينا بها لكان أمره فيها أعجب ، وطريقه أدعى إلى أن نشهد له بالبراعة ،
فقد قال :

سمعت أناسا يعيبونه بطمس المعانى وبتر الفقر
وجاء بسفر ثقیل الظلال حشاه بلفظ كوخز الإبر
فلا هو أَرْضَى بعید المرام ولا هو أَرْضَى قصير النظر

ألم تر إليه كيف سخر قوته الشعرية وأحسن استخدامها فى ذم الكتاب
على لساننا ، وكيف أذعنت له هذه القوة فأجادت فى تصوير نقدنا له ونعينا
عليه إجادة لم نصل إليها ؟ أو ما كان ينبغى حينئذ أن يكون رده علينا أبلغ
من نقدنا وأدل على مكانة الكتاب وعلو خطره من كل ما ذهب إليه فى
أبياته السابقة ؟ أو ما كان ينبغى أن يقرعنا بعد هذا كله ببیت يقطع الحجة
ويسكت الألسنة ولا يجعل لنا إلى القول سبيلا ؟ بلى كل ذلك واجب
ولكن حافظا — حفظه الله — يقول فى الرد علينا :

ولو أنصفوك لقالوا معي أجاد وأعجز طوق البشر
نعم أيها الشاعر الكبير ، لقد أنصفناه وقلنا معك إنه قد أجاد وأعجز
الناس عن فهم كتابه والاهتداء إلى غرضه ، وعن محاكاته والنسج على منواله ،
إذ كان قد بلغ من الغموض والخفاء ، ومن التعقيد والتكلف ما أعيا العقول
وأغنى الفكر . فأما الكتاب الذي أعجز الناس في البلاغة وحسن النظم
وشرف المعنى وكرم اللفظ فهو القرآن الكريم الذي لا يأتيه الباطل من
بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . فوها لبراعتك في النقد ،
وحسن تخلصك إلى مالا تسمو إليه العقول .

غير أن لنا إلى الشاعر الكبير حاجة نريد أن يتفضل بها علينا ،
فانا سألوه عن أشياء في قصيدته أعجزنا فهمها والاهتداء إليها ، كأنه قلد
الرافعى وذهب مذهبه ، وكان أول المنتفعين بهذا الكتاب . فأول
ذلك قول :

إذا قال شعرا فأكرم به وأكرم وأنعم إذا ما نثر
فهل يمدح الشاعر الكبير - أصلحه الله - في هذا البيت معنى حسنا يساوى
العناء في كتابته ونشره وقراءته ؟ وهل يمدح فرقا بينه وبين قول الرافعى
« آه يا قرى الحبيب ، بل يا حبيبي القمر » .

الثانى : قوله :

أزهر طرفى فى حسنه وأقطف منه لطيف الزهر
فانا لا نعرف التنزيه إلا التبعيد ، والعامه وحدها هى التى تستعمله فى
الخروج إلى الرياض والبساتين . وقد نص الجوهري فى الصحاح وابن مكرم

فى اللسان على أنه خطأ . وقال صاحب القاموس إنه غلط قبيح . والفعل بعد ذلك لا يتعدى بنى ، وإنما يتعدى بمن . ومع هذا كله فانا لا نفهم مرجع الضمير فى قوله « أنزه طرفى فى حسنه » فان كان مرجع الضمير إلى القمر ، فليس فى القمر زهر يقطف إلا أن يكون خيالاً رافعيًا . وإن كان مرجع الضمير إلى الكتاب فلمعمرى ما يتردد الطرف من الكتاب إلا فى مادته ، وإنما هى ورق ومداد ، وأى زهر فى هذين ؟ وهل يمدح الشاعر من الكتاب لفظه ومعناه ؟ أو ورقه ومداده ؟

الثالث : قوله « وعق الفصاحة فيما حبر » فان حبر هذه لا نعرفها ، وإنما هى حبر ، بالتشديد ، إذا أحسن الخط أو الكلام . .

الرابع : قوله « شمائل فكرك راح العقول » فان الشمائل الأخلاق ، وهى جمع الشمال فيما يقول الجوهري ، وما علمنا أن للفكر أخلاقاً إلا أن تكون إضافة رافعية .

فنشر الرافعى مقالاً^(١) فى « الجريدة » التى قدمت له بهذه العبارات :
جاءنا من حضرة الأديب مصطفى أفندى الرافعى رد على انتقاد الأديب الشيخ طه حسين ، نشره لفائدته الأدبية بعد حذف مقدمة يمنعنا أدب المناظرة عن نشرها . قال الرافعى :

كنت متردداً فى أمر طه حسين هذا لأنى لا أعرفه ، فلم أكن أدرى
أحمل خطأه محل سوء الفهم أو سوء النية حتى رأيت فى مقاله بالأمس

يستعين بالكذب أيضاً فزعم فيما حدثه الصادق الأمين أنى ألححت على الأستاذ حفى بك ناصف بالبرق حتى تخلص من إلحاح البرق بأبحاثه الجميلة (كذا) بل حتى تخلص من إلحاح البرق بأن قضى ليلتين منفرداً فى قراءة حديث القمر كما صرح بذلك فى كتابه البديع الذى نشرته الجريدة .

ولم يذهب على القراء أنى كذبت مثل هذا الزعم من طه حسين نفسه فى السنة الماضية . فخنس بعدها ، وأنا الآن أقول له صراحاً : إن هذا الصادق الأمين كائناً من كان إنما هو كاذب ولو وثقت منه ثقتك من نفسك .

ويعلم الله أنى لو أصبت فى كلام هذا الكاتب ما يستحق الرد غير هذا الكذب لأكرمه بالرد عليه ، ولخرجت من أناة يقول المتنبي فى وصفها إنها « تظن كرامة » على أنى مبين للقراء حقيقة لغوية خبط فيها الرجل وما هى من علمه ، ولا ينفذ فيها فهمه . ولولا أنها فائدة عامة ماتعرضت لها ، تلك هى التى أخذ بها حافظا فى قوله « أنزه طرفى فى حسنه »

وتجادل كل منهما على صفحات الجريدة فى عدة مقالات ، فاجتهد الرافعى فى تصويب حافظ ، واجتهد طه حسين فى تخطئته .

* * *

إن مقال طه حسين هذا له أهميته فى تاريخه كناقذ أدبى . فهو من ناحية أول مقال ينقد فيه حافظا . ومن ناحية ثانية فقد كان فاتحة خصومة أدبية عنيفة بين معسكرين أدبيين كبيرين ، أخذ كل منهما يتربص بمخضمه الدوائر ، ويجمع حوله الأنصار . وهكذا كثرت المقالات الهجائية المقذعة المحشوة بالألفاظ النابية والكلمات القاسية والعبارات البذيئة ، فلا عجب بعد ذلك أن فسد النقد الأدبى فيما يتعلق بآثار المعاصرين ، وجاء معظمه مبنيًا على الهوى ، متمًا بالزعات الشخصية .

(٥)

بين طه حسين وأستاذه المهدي

لما عاد طه حسين من فرنسا في شتاء سنة ١٩١٥ بسبب اشتداد الحرب ظل متعطلاً لا مورد له يرتزق منه . فرغب بعض المشرفين على الجامعة أن يعينوه فيها مدرسا لتاريخ آداب اللغة بمرتبة قدره عشرون جنيها في الشهر . وكان يدرس هذه المادة الشيخ محمد المهدي إلى جانب تدريسه لأدب اللغة . وكانت الجامعة تعاني أزمة مالية خانقة ، فرأى الشيخ المهدي أن يتنازل عن مرتبه ، وأن يدرس دون مقابل . فأدى^(١) ذلك إلى إلغاء توظيف طه حسين مع أنهم كانوا قد بعثوا إليه بخطاب التعيين . ثم اقترحوا عليه أن يرجع إلى فرنسا لمواصلة دراسته . فحقد على الشيخ المهدي وصوره في صورة الرجل الجاهل الذي لا يصلح للتدريس في الجامعة وذلك في مقال^(٢) جاء فيه :

في مثل هذا اليوم من السنة الماضية سمعت لأول مرة دروس الآداب في جامعة موبيلييه ، وكان الأستاذ يدرس قصة وضعها الفريد دي فيني على المثال الذي اخترعه الكاتب الإنجليزي ولتر سكوت من القصص . يلم فيه الكاتب بمحادثة من حوادث التاريخ . لخص الأستاذ القصة وحلل موضوعها ونقد لفظها ومعناها ، وما تمثل من صور أشخاصها وأبطالها ، وبين ما أثرت فيه وتأثرت به من كتب القدماء والمحدثين . فلما خرجنا من الدرس سألت صاحبي ضيفاً : كيف ترى هذه المحاضرة ؟ قال : لا بأس بها ولكنها شديدة الاختصار .

(١) الوطن في ٢٠/١٢/١٩١٥ .

(٢) الوطن في ١٦/٢/١٩١٥ .

إنك لمسرف شديد الطمع يا ضيف ! فلو سمعت درس الأدب العربي في الجامعة المصرية ، ورأيت الأستاذ وقد مر في محاضرة واحدة بثمانية من الشعراء في عصر المأمون ؛ لعرفت أن صاحبنا في موبلييه قد بلغ الغاية القصوى من الإطالة والإسهاب .

رجعنا بعد ذلك إلى مصر ، وفي هذا اليوم نفسه من هذه السنة سمعت درس الأدب العربي في الجامعة المصرية . وأبى ضيف أن يحضره معي لأنه كان عنه في شغل . ولوقد سمع الدرس الذي سمعته لذكر القصة التي أذكرها الآن ، ولشهد بنفسه البرهان على أن الأستاذ الفرنسي قد كان مطيلاً مكثراً ، بل كان مملاً مستملاً .

كان درس الأستاذ المهدي في تاريخ الأدب العربي في الأندلس أيام المستنصر والمنصور بن أبي عامر أشبه بمعرض الصور المتحركة ، تمر فيه ظلال الشعراء ولما يتبين منها الطلاب أكثر من أسماهم . وما عسى أن يكون درس ذهب نصفه في وصف مكتبة المستنصر ، ودهاء المنصور ، وألم النصف الباقي بما يتجاوز عشرة من الشعراء ؟ ! !

مكتبة المستنصر ! ! إن أمرها لغريب ! هذه المكتبة كان فيها أربعمائة ألف مجلد ، ولها فهرس يزيد على ثمانمائة ورقة ، وليس فيها كتاب إلا قرأه المستنصر وعلقي عليه ووضع له مقدمة ! ! وهو لم يملك إلا بضعة عشر عاماً ملئت بالفتوح وألوان الجهاد ! ! كل ذلك قاله الرواة ، وكل ذلك قبله الأستاذ ، إلا أن أوراق الفهرس في رأيه أقل جداً مما كان يجب أن تكون ! ! شيء لطيف .

مررنا بطائفة كبيرة من الشعراء ، يذكر الأستاذ اسم الشاعر وشيئاً من من شعره ، ولكنه لا يكاد يفرغ من إنشاد البيت حتى نتقل من الجامعة

إلى إحدى الحانات ، فنسمع دوى الشرب وقد أطربتهم نعمة المغنى وتوقيع
المواد ، فقالوا بصوت واحد : الله ، أعد !! فيعيد الأستاذ ، والظاهر أنه يحب
الاستعادة ، فقد أنشد بيتاً لم يستعده الطلبة فقال : لم لا تستعيدون هذا
البيت ؟ إنه جميل ! أعد يا أستاذ من فضلك ، فيعيد : الله أكبر ! جميل جداً
صحيح !! وكذلك مضى الدرس .

إنك لسيء الحظ يا ضيف : فلو سمعت معى درس الأوس لرأيت شعر
ابن هانيء ينسب إلى ابن خفاجة ، ثم يعتذر الأستاذ حين ينكر ذلك عليه .
بعض الطلبة .

حرم — يعنى ضيفاً — هذا الألم ، وكان من الحق عليه أن يشعر به
ليعرف أن اختصار فرنسا إطالة ، وأن إطالنا اختصار ، وأن هزل فرنسا
جد ، وأن جدنا لعب ، وأن فرنسا حرية بالحلب والإعجاب ، وأن مصر خليفة
بالرحمة والرئاء . زاد الله فرنسا رقياً ورفعة ، ووفى لمصر حاجتها من الإصلاح .

وقد غضب الشيخ المهدي وطالب^(١) بشطب اسم طه حسين من سلمك
طلبة الجامعة ، وكان هذا يعنى إلغاء عضويته في البعثة الجامعية . وأخيراً
توجه أحمد لطفي السيد وفي صحبته طه حسين إلى الجامعة وحضرا درساً
للشيخ المهدي . وبعد الدرس ألقى أحمد لطفي كلمة أثنى فيها على الشيخ لما في
درسه من النفع الجزيل لمستمعيه ، واعتذر طه لأستاذه ، وبذلك انتهى
الموضوع .

(١) الوطن في ٢٢/١٢/١٩١٥ .

طه حسين المتكلم

اشتهر طه حسين بأنه محاضر ممتاز ، ومحدث لبق ، ومتكلم بارع ، يتكلم فيملك قلوب السامعين ، ويأسر خواطرهم ، ويثير إعجابهم .

وكانت أول محاضرة له تلك التي ألقاها بنادى الموظفين فى أكتوبر سنة ١٩١١ عن تاريخ اللغة العربية ، وقد نشرتها الجريدة تحت عنوان « هل تسترد اللغة مجدها القديم ؟ » ومما جاء فيها :

أيها السادة ؟

سيضحك منى بعض الحاضرين إذا سمعنى أبدأ هذه المحاضرة بحمد الله والصلاة على نبيه ، لأن ذلك يخالف عادة العصر الجديد ، ولكن لى عن ذلك معذرة سيعلمونها فيما بعد .

فأحمد الله أجل حمد ، وأصلى على نبيه أحسن صلاة . أما بعد ، فقد دعيت إلى أن أقف بينكم هذا الموقف ، وأنا شاكر للذين دعونى هذه الدعوة كل الشكر . ولست أريد أن أطيل عليكم بما يردده الخطباء من إعلان الضعف والعجز عن موقف الخطابة . فانى أرى من الفتور وانحراف الذوق أن أ كذب ظنكم بى ، أو أسوء رأيكم فى .

لهذا كان حقا على أن أعمل ما أستطيع لتأكيد صدق هذا الظن ، وحسن ذلكم رأى ، ومهما يكن عندى من المقدرة على إرضائكم ، فان لرئيسكم الجليل منها نصيبا غير قليل .

واستطرد قائلا :

ولاشك في أني قد خصصت جزءاً من هذه المحاضرة للاشادة
 للوجزة إلى تلك الظلمات الكثيفة التي حجبت لغتنا الشريفة عما يشرف به
 التاريخ على الأشياء من بصيرة ثاقبة ، ونظر بعيد . ولكني لم أستطع أن
 أخصص جزءاً منها لإيراد الأعاجيب والمضحكات التي يوردها أكثر الخطباء
 في خطبهم ، لأنني لا أطمع فيما يطمعون فيه من التصفيق الحاد ، والأعجاب
 الشديد . فاليكم أتقدم بالمعذرة ، ومنكم ألتبس المغفرة . وأظنكم لم تجتمعوا
 في هذا النادي لتضحكوا أو تصفقوا ، فاني لم أر بلداً أهله أحوج إلى قلة
 الضحك وكثرة البكاء من هذا البلد . ولولا ثقتي بأنكم تعلمون من الأمر
 ما أعلم ، وتشعرون بالواجب كما أشعر ، لقلت لكم مقالة النبي صلى الله عليه
 وسلم لأصحابه في بعض خطبه « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً
 ولبكيتم كثيراً » .

أجل أيها السادة ! إننا قد أسرفنا في الهزل والمجون ، وقصرنا في الجد
 والعمل . وكان حقاً علينا - لو أنصفنا أنفسنا - أن نقتصد من الهزل ما تنفقه
 في الجد ، ومن الفراغ ما نستعين به على العمل قبل أن يعضل الداء ، ويمتنع
 الدواء ، ونقضى ضحايا التقصير واللهو الكثير ، وهناك لا ينفعنا الندم ولا
 يعذرنا التاريخ ،

وقد ظل طه حسين يردد هذه الديباجة طوال حياته .

وله من محاضرة أخرى سنة ١٩١١

« ومن الغريب أيها السادة أن علماءنا - رحمهم الله - بدل أن يبحثوا
 عن اللغة السريانية من حيث علاقتها باللغة العربية ؛ بحثوا عنها من حيث

إنها ستكون لغة الأرواح ، وسيكون بها حساب القبر ، وأظنكم تضحكون
إذا سمعتم قول بعض العلماء :

ومن غريب ما ترى العينان أن سؤال القبر بالسرياني^(١)
أفتى بهذا شيخنا البلقيني ولم أره لغيره بمعنى

هذان البيتان يمثلان ضعف السليقة العربية وفسادها قبل كل شيء
أقبح تمثيل . ويمثلان سقوط الهمة ، وانحطاط النفس ، لأنها تركت النافع
وبحثت عما لا خير فيه . وأى ضعف للسليقة العربية أكثر من جعل
الأقوال التي تسمع بالأذان مرئية للعيون ؟ وأى انحطاط للنفس أكثر من أن
تترك الحياة وتبحث عن الموت ؟ ولو أتي وكلت باصلاح هذين البيتين لقلت :

ومن سخيـف ماتمى الأذنان أن سؤال القبر بالسرياني
أفتى بهذا شيخنا البلقيني وهو حديث كذب ومين

ثم استطرد قائلا :

إذا صح ما يقولون من أن مقاييس الرقي الأدبي لكل أمة من الأمم هي
أشعارها وأمثالها وأغانيها ، لأن الأشعار مرآة النفس والأمثال صورة
الفكر ، والأغاني لغة القلوب .

أقول إذا صحت هذه القاعدة وقسنا رقي العرب في جاهليتهم بهذه
المقاييس الثلاثة ، كانت النتيجة مؤلمة جدا لأننا لانستطيع أن نتردد لحظة
واحدة في الحكم بأن العرب الجاهليين الذين لم يؤدبهم أستاذ ، ولم يتقنهم

(١) أخطأ طه حسين في فهم هذا البيت . ومعناه أن العين لم تقع على شيء مدون في الكتب
أغرب مما أفتى به البلقيني وهو أن سؤال القبر يكون باللغة السريانية .

كتاب ، ولم يصلح أخلاقهم دين ، أرقى منا أنفسا ، وأذكى قلوبا ، وأبعدنا
 همما ، وأصدق عزما . والدليل على ذلك سهل ميسور . تعالوا نقارن بين
 أشعارنا وأشعارهم ، وأمثالنا وأمثالهم ، وغنائنا وغنائهم . ثم نستخلص
 من هذه المقارنة نتيجة الحكم . فأى الفريقين كانت له النتيجة فهو صاحب
 القلب والفوز . غير أنى أيها السادة أستحى أن أقارن بين قول امرئ القيس
 فى التوصل إلى حبيبته :

سموت إليها بعد ما نام أهلها	سُمِّو حباب الماء حالا على حال
فقلت سباك الله إنك فاضحى	ألست ترى السهار والناس أحوالى ^(١)
فقلت يمين الله أبرح قاعدا	ولو قطعوا رأسى لديك وأوصالى
فأصبحت معشوقا وأصبح بعلا	عليه القتام سيء الظن والبال
يغط غطيظ البكر شدخافه	ليقتلنى والمرء ليس بقتال ^(٢)
أَيَقْتَلَنِى والمشرقى مضاجعى	ومسنونة زُرْقُ كَأَنِيَابِ أَغْوَالِ ^(٣)

أستحى أن أقارن بين هذا الشعر الفخم الذى يمثل القوة والعزم ، ويظهر
 قائله مظهر المتسلط القادر ، والمسيطر القاهر ، وبين ذلكم الغناء المصرى
 القائل : يا لمونى يا لمونى ، يا لى فى حبك ظلمونى ، يا لمونى وأناحب الخس ،
 يا لمونى ولا أكل الخس يا لمونى ، وحبيبي فى مصر يا لمونى ،
 على مين يجبولى .

(١) سباك : تجعلك سبيا أى غريبا . أحوالى : حولى و كل مكان .

(٢) الغطيظ : صوت ينبعث فى صدر الإنسان . البكر : الفتى من الابل

(٣) المشرقى : السيف . الزرق السنونة : السهام الحادة . وشبهها بأنياب الأغوال كأنه
 يبالغ فى قوة فتكها ، وهذه الأبيات لامرئ القيس من قصيدة مطلعها .
 ألاعم صباحا أيها الطلل البالى وهل يعنى من كان فى المصر الحالى

قفوا أنفسكم أيها السادة موقف الحاكم الفاصل بين الحق والباطل وحدثوني أى معنى لنداء الليمون فى هذا الغناء ؟ ومن هو الذى ظلم هذا العاشق فى حبه ؟ وما هى العلاقة بين أكل الخس وبين الحب ؟ ومن ذا الذى يستطيع أن يكون قوادا لهذا العاشق بعد أن قعد به العجز وضعف الهمة . عن أن يصل إلى أحب حبيب إليه ، وأكرم كريم عليه ؟

لندع ذلكم الشعر والغناء . ولننتقل إلى شعر وغناء آخرين . هل تستطيعون أن تقارنوا بين قول ذلك الشاعر الجاهلى فى عتاب حبيبته :

فانى لو تخالفنى شمالى خلافك ما وصلت بها يمينى
إذن لقطعتها ولقلت بينى كذلك أجتوى من يجتوينى^(١)

وبين هذا الغناء المصرى القائل : ارحم متيم له أحوال ، لما رآك تهوى
خلافه ، صعبان عليه .

حدثوني أيها السادة عن مقدار الفرق الكبير بين ذلكم الشاعر المصرى الذى عرف أن حبيبه قد هجره واستبدل به غيره فلم يستطع أن يعاتبه بأكثر من قوله : إن هذا صعب عليه ، بل إنه لم يستطع أن يقول هذه الكلمة إلا بعد أن قدم بين يديها مقدمة طويلة فى الشكوى والاستعطاف .

ستقولون إن هذا الفرق بين الشعارين أثر من آثار الفرق بين البداوة والحضارة . فذلك شاعر هيأت له بداوته أن يخاطب حبيبته بذلك الجفاء وتلك الغلظة . وهذا شاعر هيأت له الحضارة أن يعاتب حبيبه بهذا الرفق واللين .

(١) بينى : ابعدى وغيبى . يجتوينى : يكرهنى ويبغضنى .

كلا أيها السادة ، ليس تأثير الحضارة والبداءة في هذا الأمر كبيرا ،
فإن الحضارة الصالحة لا تقتل عاطفة الغيرة من قلب الإنسان ، ولعلكم
سمعتم خبر ذلك الشاعر العباسي الناشئ في الحضارة إذ اشتدت به الغيرة على
حبيبته حتى أشفق عليها من الهواء فقتلها وقال يرثيها :

باطلعة طلعت الحمام عليها	خفي لها ثمر الردى بيديها
حكمت سيفي في مجال وشاحها	ومدامعى تجري على خديها
رويت من دمها الثرى ولطالما	روى الهوى شفتى من شفتيها
فوحق نعلها وما وطىء الثرى	شئ أعز على من نعلها
قد كان قتلها لأنى لم أكن	أبكى إذا سقط الذباب عليها
لكن ضننت على العيون بحسنها	وأنفت من نظر العيون إليها

نعم لا أريد أن يكون الناس غلاة في الغيرة كهذا الشاعر ،
ولكنى أريد أن أبين لكم أن هذا الفرق بين الشاعرين ليس من آثار
البداءة والحضارة ، وإنما هو من آثار الفرق بين العزة والذلة . فذلكم
الشاعر أبى النفس ، حتى الأنف ، لا يقبل الضيم ولا يرضى العار . وهذا
عاشق ضعيف مستكين قد رضى بالدون وقنع بالقليل ، وأطمأن إلى الهوان .
سقولون : مالك تقارن بين الجيد من الشعر العربى ، والردىء من
الكلام البلدى ، وتترك شعر الثوابغ الأفذاذ والشعراء المفلقين أمثال شوقي
وحافظ وصبرى ؟

والحقيقة أيها السادة إن هذا الاعتراض محرج جداً ، لأنه يتمجاني في
الحكم على هؤلاء الشعراء ، وقد لا أستطيع أن أرضيكم بهذا الحكم ،
ولكنى أقول إن هؤلاء الشعراء ليسوا في الحقيقة شعراء مصر ، وإنما هم
بين رجلين : رجل نهج منهج الفرنج فهو يعبر عن أذواقهم وأخلاقتهم ،
وعلى مناهجهم وأساليبهم . وهذا لا ينبغي أن يحسب على مصر ، وإنما
يجب أن يلحق بأوربا . ورجل نهج نهج العرب القدماء فهو يكرر ما قالوه ،
(٩ — طه حسين)

ويردد ما نطقوا به مع قليل من التغيير في اللفظ ، فهو يشبه القطار بالظلم ، وهذا لا ينبغي أن يكون من شعراء مصر ، وإنما ينبغي أن يكون من شعراء القبور .

لندع الشعر والغناء الآن فهذا المقدار يكفي للمقارنة بينهما . ولننتقل إلى الأمثال ، فهل تستطيعون أن تقارنوا بين ذلك المثل العربي القائل « كل فتاة بأبيها معجبة » وهذا المثل المصري القائل « الخنفسة عند أمها عطارة ، والقرد في عين أمه غزال » .

كفى كفى أيها السادة ، فقد أثبتت المقارنة بالدليل والبرهان أننا لم نصل من الرقي الأدبي إلى ما وصل إليه أولئك الأعراب وإن كنا أولى حضارة ومدنية وأصحاب علوم وآداب ، وذوى شريعة ودين » .



إن الموازنة بين شعر امرئ القيس والأغاني الشعبية المصرية لا تقوم على أساس سليم . وذلك لاختلاف البيئة وتباين الحالة النفسية عند الشعراء . فامرؤ القيس يصور بيئة الصحراء التي تعتمد على السيف وسفك الدماء في سبيل الوصول إلى ما تبتغى . أما الشاعر المصري فقد تغزل في حسناء تلبس ملابس صفراء تشبه قشر الليمون الأصفر . أو تشبه ورق الخس الضارب إلى الصفرة . وهو يعبر عن حبه لليمون والخس لهذا السبب ، ويقول إن العواذل ظلموه حينما فرقوا بينه وبين حبيبته هذا الذي يلبس الملابس الصفراء . وبما أنه لا يملك سيفاً كما كان يملك امرؤ القيس ، فلذلك يريد أن يحقق آماله في الاتصال بالمحجوب عن طريق استعطاف هذا المحجوب . فهو يصور حالته لا أكثر ولا أقل ، وتلوح عليه سمات الصدق في تصوير عواطفه .

ولا ينبغي الموازنة بين المثل العربي « كل فتاة بأبيها معجبة » والمثل العامي « الخنفسة عند أمها عطارة » و « القرد في عين أمه غزال » وذلك لأن المثل العربي المذكور يرمى إلى معنى مختلف عما يرمى إليه المثل الشعبي الذي أورده وهو « القرد عند أمه غزال » إن هذا المثل الشعبي أعطانا صورة قوية جدا عن مقدار حب الأم لابنها حبا يجعلها تتصور فيه كل معاني الجمال ولا ترى ما فيه من قبح عظيم . أما المثل العربي « كل فتاة بأبيها معجبة » فلا دلالة فيه إلا على ارتياح نفس الفتاة إلى أبيها ونظرها إليه بعين الإكبار .

* * *

ولما هم طلبة بمئة الجامعة المصرية بالسفر إلى فرنسا في ديسمبر سنة ١٩١٥ دحاهم السلطان حسين لمقابلته وزودهم بنصائحهم . فرد عليه طه حسين بالخطبة الآتية :

أعز الله نصر مولانا وأعلى كلمته . نحن أبناء العلم ، نهضنا فيه صغارا ، وسنمضي فيه كبارا . وقفنا عليه ماضينا وحاضرا ومستقبلا . ولم نشغل إلا به ، ولم نفكر إلا فيه . ليس لنا في حياتنا غاية إلا أن نخدم وطننا العزيز وسلطاننا المحبوب خدمة علمية صادقة . فبإسم الجامعة المصرية نرفع إلى عرشك الكريم تحية العلم طاهرة صادقة تمثل شكره لك ، ورجاءه فيك . « لقد أحسنت يا مولاي إلى العلم ، ورفعت قدره . فليزد الله قدرك رفعة ، وليحسن جزاءك عن العلم والمتعلمين » .

وقد نفح السلطان كل عضو من أعضاء البعثة بخمسين جنيها . وحدث أن أدى السلطان فريضة الجمعة في مسجد عابدين ، وكان ذلك^(١)

في ٣١ ديسمبر سنة ١٩١٥ وكان الخطيب الشيخ محمد المهدي إمام جامع
عربان ، فقال في خطبته « جاءه الأعمى فأكرمه وبفضله عليه تجلى ،
وما عبس في وجهه وما تولى » مشيراً إلى حسن مقابلة السلطان لطف حسين
وزملائه . فلم يكذ المصلون يسمعون هذه العبارات حتى خيمت عليهم
الكآبة ، واستبد بهم الألم ، واشتد عليهم الحزن للتعريض برسول الله صلى
الله عليه وسلم على منبر في خطبة جامعة ، وإهانة ذاته الكريمة . ولكن
القوم ظلوا على مام عليه من الاحتفاظ بهيبة المسجد ، وكظموا غيظهم
إلى أن انتهت الصلاة ، فشرع أغلبهم في صلاة الظهر بعد أن اتضح بطلان
صلاة الجمعة . وقام الشيخ محمد المهدي يصفح الناس حتى وصل إلى الشيخ
محمد شاكر ، وكيل مشيخة الأزهر ، وعضو هيئة كبار العلماء في ذلك الوقت ؛
فرفض أن يمد إليه يده ، وقال له بصوت مرتفع أمام الحاضرين « لأصالحك ،
ولا أضع يدي في يدك . فاخرج من هنا فانك مرتد لتعريضك بالنبي
صلى الله عليه وسلم » ثم توجه الشيخ شاكر إلى قصر عابدين وقابل كبير
الأمناء وأبلغه ما حدث ، وأفهمه أن ما وقع من الشيخ المهدي تعريض
بالنبي ، وهو ردة وكفر ، وطال بينهما النقاش على غير فائدة .

ولما سئل الشيخ المهدي عما حدث قال : إن هذا النص لم يرد في الخطبة
الشرعية التي تنتهى بالحديث الصحيح ، وإنما ورد في ذكرى لمناقب عظمة
السلطان على سبيل الاقتباس فقط .

وقالت صحيفة الأهالي^(١) « تسرب إلى ذهن الشيخ شاكر أن ذكر الخطيب

ثَلَاثَةِ الْكَرِيمَةِ - عِيسَى وَتَوَلَّى أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يُزَكِّي -
مُسَبَّوْقَةً بِكَلِمَةِ النَّبِيِّ ؛ يَرِيدُ التَّعْرِيفَ بِالْمَقَامِ النَّبَوِيِّ الْكَرِيمِ ، وَأَنَّهُ يَرِيدُ
أَنْ يَذْكَرَ خَيْرَ ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ الْأَعْمَى الَّذِي جَاءَ لِلنَّبِيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَرِيدُ
الْإِسْلَامَ ، فَقَطَّبَ النَّبِيُّ وَجْهَهُ وَلَمْ يَحْسُنْ مُقَابَلَتَهُ لِأَنَّهُ كَانَ مُشْغُولًا بِاسْتِقْبَالِ
وُفُودِ الْعَرَبِ ، وَنَزَلَتِ الْآيَةُ عِتَابًا مِنْ اللَّهِ لِنَبِيِّهِ . وَقَدْ حَسُنَ إِسْلَامُ
ابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ وَكَانَ مِنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ .

« أَدَّى فَهَمُ الشَّيْخِ شَاكِرٍ إِلَى ذَلِكَ الْمَعْنَى ، فَفَرَضَ السَّلَامَ عَلَى الشَّيْخِ
عَمْدِ الْمُهْدَى وَأَهَانَهُ أَمَامَ الْحَاضِرِينَ » .

طه حسين ومشكلة المرأة

كتب طه حسين سلسلة مقالات في مجلة الهداية لصاحبها عبد العزيز جاويز سنة ١٩١١ تحت عنوان « كلمات في المرأة » وضح فيها آراءه في سفور المرأة وتعليمها . فقال إن الدين الإسلامي لم يأت بما يقيد حرية المرأة أو يقص جناحها ، وإنما جاء بما يجعل هذه الحرية صالحة نافعة يقوم بها أمر المرأة ، وتنتظم به أحوالها . والإسلام لم يأخذ المرأة بحجاب ولا نقاب . وقد عرف الإسلام ضعف المرأة عن المقاومة البدنية والنفسية ، فحظر عليها أن تسافر إلا مع زوج أو محرم يدفع عنها ختل الخاتل وشر الغائل . وهذا لا يعد تقييداً لحريتها ، وهو في الحقيقة مبالغة في العناية بها . فالإسلام قد جاء للمرأة بأحسن نظام تسمو إليه .

ثم تكلم على مضار الحجاب فقال : إذا كان الحجاب وسيلة صناعية لالتقاء الشر ، وكانت هذه الوسائل لا تتخذ إلا لبشاذ الأفراد ، فلا شك في أن الحجاب لا يصلح لأن يتخذ قاعدة اجتماعية تبنى عليها نهضة الأمة . والعلم الصحيح يؤيد الحرية ويمقت الرق ، وعلى ذلك فهو لا يؤيد الحجاب لأنه نوع من الرق والاستعباد .

وفي موضوع زواج المسلم بالكتابية فإن طه حسين كان يرى تحريمه . قال « ولست أرى على من بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت . كثير منا يتزوج الكتابيات من أهل أوروبا رغبة في جماهن وما يشاع من علمهن وأدبهن إلى غير ذلك . ولكن ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج ؟ لا شيء إلا أن يصبح الرجل وبيته وأبناؤه وبناته أوروبيين في كل شيء ، اللهم إلا أفراد أفذاذ

لا يعول عليهم في الأحكام لأنهم قليلون . إذن فاستطيع أن أحظر تزوج المسلم بالسكتابية من الفرنج أو على الأقل أضيق دائرته تضيقاً شديداً ، لا سيما إن أضفت إلى ما سبق فساد الدين في نفوس الفرنج فساداً مطلقاً حتى أشرف على الانحفاء .

هذا ملخص آراء طه حسين في موضوع المرأة . وإلى انقاريء ما جاء تحت عنوان « الكلمة الأولى » .

« الآن كثر القول في مسألة المرأة ، فاقتحمها الكاتب والشاعر والخطيب . ولم تبق صحيفة من الصحف العربية إلا طرقت هذا البحث وسلكت فيه سبيلاً . وكذلك الأندية العامة ومجالس السمر لم يبق منها ندى ولا مجلس إلا اتخذ هذا الحديث من شئونه وأسماره . وهذه مقدمة لازمة لكل فكرة عامة تريد أن تأخذ نصيبها من الوجود الكامل ، وتنال قسطها من الحياة الدائمة . فان الناس لا يعدلون طريفاً بتليد ، ولا يميلون عن قديم إلى جديد إلا إذا أهابت بهم من المصلحين أصوات لها قصف الرعد وزئير الأسد ، تذهلهم عما كانوا عليه ، وتحملهم على ما يدعون إليه . سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

وإذا غنى الرجال في هذه الأيام بمسألة المرأة فانما يعنون بمسألتهم قبل كل شيء ، إذ كان ما ينالهم وينال أنسألهم من هوى ورقى نتيجة لازمة لما تكون عليه حال المرأة من صلاح وفساد . كيف لا والمرأة هي قالب النوع الإنساني يفرغه الله فيه ، ويصوغه على مثاله . تحمل وليده تسماً ، وترضعه شفعم ، وتربوه طفلاً ، وتؤدبه يافعاً ، وترشده غلاماً وكهلاً .

أفلا يكون حقاً على الرجل بعد ذلك أن يختص مسألة المرأة بالبحث

والتحيم ؟ ويصنى جوهرها من أخلاط الشك وأدناس الوهم حتى تخلص من كل شائبة ، وتصير من قلبه إلى مكان اليقين ؟

بلى إن هذا حق لا شك فيه ولا مندوحة عنه . ولذلك لم نجد بداً من أن نلقى دلونا في الدلاء ، ونضرب مع القائلين بسهم في مسألة المرأة رغبة في تأييد الحق ، والدود عنه ، واستجابة لهذا الدعاء المحزن الذى يصدر عن بنات النيل ، وفيهن أخواتنا وأهل مودتنا ، ومنهن زوجاتنا وبناتنا في مستقبل الدهر ومستأنف الأيام .

ذلك الدعاء المحزن الذى يرسلن به أصواتاً فآثرة على أنها تنال من نفوس الرحماء ، وتبلغ من قلوب الصالحين . غير أن لكل كاتب فى أى مسألة من المسائل حداً يجب أن لا يتعداه ، ومدى يجب أن ينتهى إليه . وحدنا فى هذه المسألة إنما هو دين الله الذى أنزله شفاء لأدواء الأفراد والأمم ، وإصلاحاً للفاسد من أمورهم . فعلينا أن نقف عنده ، ولا نتعدى حده . ومن يتعد حدود الله فأوائك هم الظالمون .

على هذا الأصل الصحيح نقول إن رقى المسلمين رهين بأن يرجعوا إلى أصول دينهم الذى أهملوه ، وكتابتهم الذى أغفلوه ، فيتمسكوا بأسبابها ، ويتعلقوا بأهدافها . وعلى غير ذلك لا تقوم لهم قائمة ، ولا يصلح لهم جيل .

حرية المرأة

ليست مسألة المرأة منحصرة فى الحجاب والسفور كما يظن بعض الكتاتين ، وإنما ترجع فى الحقيقة إلى أصلين كبيرين ، أحدهما : تربية المرأة ، والثانى : حريتها .

ولسنا بقائلين في الأصل الأول شيئاً اليوم ، وإنما نرجئه إلى الفصول التالية لأنه يحتاج إلى كلام كثير ، وسنكتب الآن في الأصل الثاني فنقول :

الحرية المطلقة ظل الحياة المطلقة . فحينما وجدت الأولى يجب أن توجد الثانية . ومعنى ذلك أن الحرية المطلقة حق فطرى للذكر والأنثى من الحيوان على السواء . وليس الإنسان إلا فرداً من أفراد الحيوان وفرعاً من فروعهِ . فالرجل والمرأة إذن قسيان في الحرية المطلقة ، والمنفعة وحدها هي التي تجمد هذه الحرية العامة بمحدود العقل والعادة والدين . فكل ما يقيد حرية الرجل من هذه الحدود يقيد حرية المرأة كذلك . هذا شيء متفق عليه لا معنى للبحث عنه والجدال فيه .

وإنما نبحت عما جعل للرجل سلطاناً على المرأة ، ويزه عليها ، وقيدها بقيود خاصة لا ينال الرجل منها شيء . ونقول ليس لهذه القيود مصدر إلا نظام الأسرة ، فهو الذي اقتضى أن يكون للرجل قيامة على المرأة فيكسب لها القوت ، ويجمع من أسباب الراحة والدعة ما يمكنها من أن تقضى حاج المنزل وتقوم على تربية البنين والبنات . وليس من الممكن غير ذلك لأنه مقتضى الفطرة والطبيعة . ولكن هل قيام المرأة بحاج المنزل وفروض التربية يقضى بأن تسلب حريتها وتقتصر في القيود كما تقتصر الأمتعة ؟

هذا ما لا يمكن القول به ، بل يجب القول بنقيضه فإن المرأة إذا لم تكن مطلقة اليد ، حرة في أعمالها وأقوالها ، يستحيل أن تقوم بما يجب عليها حق القيام لذلك لم يأت الدين الإسلامى بما يقيد هذه الحرية ، أو يقص جناحها . وإنما جاء بما يجعل هذه الحرية صالحة نافعة . يقوم بها أمر المرأة وتنظم أحوالها .

ما الذى فرضه الإسلام على المرأة ؟ وما الذى أمرها به ؟
فرض عليها العفة كما فرضها على الرجل ، وأمرها بأن تتجنب سبيل الظنة
كما أمر بذلك الرجل . عرف أن فى المرأة وجمالها فتنة للرجل هى مظنة
الفسوق ، فنهاها عن أن تبدى من زينتها ما تستطيع إخفائه ، وهو غير الوجه
واليدى . فقد قال القرآن الكريم (ولا يبدى زينتهن إلا ما ظهر منها)
وفهم المسلمون من هذه الزينة الظاهرة الوجه واليدى . فأى تكلف فى هذا
الأمر ؟ وأى عناء ينال المرأة من اتباعه ؟

ما الذى تريده المرأة إذا أباح الله لها أن تظهر من زينتها مثل ما يظهره
الرجل ؟ لم يأخذ الإسلام بحجاب ولا نقاب . ولئن سألت الذين ينتحلون
ذلك على الإسلام من أى آية فى كتاب الله أو أى حديث فى سنة نبيه أخذتم
حكم الحجاب والنقاب لنالهم الإعياء والقصور .

أباح الإسلام للمرأة أن تخرج من منزلها فتغشى مجالس العلم ومساجد
الصلاة ، ومواضع الرياضة فى غير ما فتنة ولا فسوق .

عرف الإسلام من طبيعة الرجل والمرأة أكثر مما نعرف . فخطر عليها
أن تخلو بالأجنبي كما حظر ذلك على الرجل . وأى مصلحة عامة أو خاصة ينالها
الإنسان من خلوة الأجنبي بالأجنبية ؟ ليست هناك مصلحة ما ، ولكن
هناك مفسد كثيرة إن لم تكن متحققة فهى مظنونة التحقق . والمظنة
مبنى الأحكام فى الأديان والشرائع قديماً وحديثاً . ومن اختبر النساء
وابتلى طبيعتهم عرف أن المرأة مهما كانت طاهرة الذيل ، نقية الجيب ،
عفيفة النفس ؛ فانها مظنة الانخداع بأمانى الرجال ووعودهم ، ولا سيما إذا
قرنت إلى الثناء . والله در شوقى حيث يقول :

خدعوها بقولهم حسناء والغواى يغرهن الثناء

عرف الإسلام ضعف المرأة عن المقاومة البدنية والنفسية لخطر عليها أن تسافر إلا مع زوج أو محرم يدفع عنها ختل الخائل ، وشر الغائل . فوالذي تسمو إليه المرأة بعد ذلك ؟ وكيف يعد هذا تقييداً لحريتها ، وهو في الحقيقة مبالغة في العناية بها ؟ هل أخطأ الإسلام في أن عني بأمر المرأة ورفع من شأنها حتى جعلها لا تسافر إلا مع الحرس والمحافظين عليها ؟

من هذا كله تنتاج نتيجة لازمة ؛ وهي أن الإسلام قد جاء للمرأة بأحسن نظام تسمو إليه ، وسن لها أقوم سنة تطمع فيها . وأنها لو اتبعت ذلك النظام ، واستنت هذه السنة لبلغت أقصى ما تطلبه وتطمع فيه من الرقي والكمال .

ولنلخص في كلمات قليلة حكم الإسلام في المرأة وحريتها فنقول :

لا فرق بين المرأة والرجل في الحرية ، وكلاهما مأمور بمكارم الأخلاق مهي عن مساوئها ، محظور عليه أن يتعرض لمظان الشبه . فالمرأة لا تخلو بالأجنبي ولا تسافر وحدها ، ولا تتبرج تبرج الجاهلية الأولى . ولها بعد ذلك أن تفعل ما تشاء في غير إثم ولا لغو . لها أن تطرح النقاب وترفع الحجاب ، وتتمتع بلذات الحياة كما يتمتع الرجل . وليس عليها إلا أن تقوم بما أخذت به من الواجب لنفسها وزوجها والنوع الإنساني كافة .

هذا هو حكم الإسلام ، وهو رأينا الذي لا نعيد عنه ، ولا نعدل به رأياً آخر . وموعداً العدد المقبل لنقول شيئاً في تربية المرأة إن شاء الله .

٢- عود إلى بحث السفور والحجاب

بيننا في الفصل السابق أن مسألة المرأة لا تنحصر في السفور والحجاب ، وإنما هي ترجع إلى أصليين كبيرين ، أحدهما : تربية المرأة ، والثاني : حريتها . وأثبتنا أن الحرية المطابقة ظل الحياة المطلقة ، وأنها حق فطري للرجل والمرأة على السواء ما دامت الطبيعة لم تفرق بين نصيديهما من الحياة . وقلنا إن هذه الحرية يجب أن تكون مطلقة مرسله حتى تحدها حدود المنفعة بنظام العقل والدين . وحققنا أن الإسلام لم يشرع للمرأة حجابا ولا نقابا ، وإنما أخذها بالغفة وغض البصر ، كما أخذ بهما الرجل أيضا . وحظر عليها وعلى الرجل أن يخلو أحدهما بغير ذى حرمة عليه . وكلفها أن لا تسافر إلا في حراسة ذى الرحم أو القرين . ولكن « الهداية » أبت إلا أن تتمعلنا بالنقض والمناقشة . ولا شك في أن لنا حقا ظاهرا أن نناقش رأى « الهداية » ونقيم الحجة من جديد على ما ادعيناه فنقول :

ليس في كتاب الله ولا في سنة نبيه نص ظاهر أو مؤول يوجب على المرأة الحجاب والنقاب . وقد اعترفت « الهداية » بذلك فلم تناقشنا إلا من سبيل العقل ، وهي ترى أن السفور مفسدة لأنه سبيل الخلوة بالأجنبي ، وليس لها على ذلك دليل إلا التجربة والابتلاء في مختلف الأمم ، ومتباين الشعوب . ولنا إلى رد ذلك سبل ثلاث :

الأولى : أن الحجاب لا يدرأ المفسدة .

الثانية : أنه سبيل إليها .

الثالثة : أنه آية فساد الأخلاق في الرجل والمرأة .

فأما الأولى فلا نزن أن « الهداية » تنكرها علينا ، فإنها تعلم أن الحجاب وسيلة صناعية لاتقاء الشر . وأن النفوس لاترجع عن غيرها إلا إذا أهاب بها زاجر منها . ولاشك في أن الحجاب بطبيعته مبغض إلى نفس المرأة ، ممقوت منها ، لأنه تقييد لحريتها الفطرية لم يستند إلى حجة من عقل أودين . ومما لاشك فيه أن عوامل السوء التي تدفع المرأة إلى اقتراف الإثم أقوى من الحجاب ، لأنها صادرة عن النفس بعد إلتقان الحيلة وتمهيد السبيل . فاذا كان للحجاب عمل ظاهر فاعلم هو إخفاء الشر ، وإسدال الستر عليه .

وهل تستطيع « الهداية » أن تنكر مقدار مالاشر والفسوق من التأثير في نفس المرأة عندنا مع التشدد في الحجاب ؟ ثم أيهما أقرب إلى الشفاء ؟ أذلك الداء الظاهر الذي نستطيع أن نتعرفه ونطب له ؟ أم ذلك الداء الخفي الذي تلقى العادة السيئة بيننا وبينه حجابا مستورا ؟

وأما الثانية فإن « الهداية » أيضا لاتنكرها علينا فهي قسيمة في العلم . بأن العقوبة الصناعية سبيل من سبل الحيلة في اقتراف الآثام ، واجتراح السيئات . ألم تر إلى هذا الشقي الذي وضع القانون له من العقوبات مافيه مزدجر ؟ كيف يتفنن في استنباط الحيلة وتمهيد السبل إلى الجرائم من حيث لايجد القانون إليه مذهبا ولا طريقا .

هذه طبيعة من طبائع الناس ، فإن أحدهم إذا لم يزعه عن الشر وازع من نفسه لم تفلح العقوبات الصناعية في تأديبه وإصلاح ضميره ، بل تعلمه كيف يسلك السبل المختلفة إلى مايريد . ولذلك عنى الإسلام بإصلاح النفوس .

وتقويمها ، وتقوية الوازع النفسى فيها . وما نظن أنواع العقوبة التى وضعها للأشقياء إلا قد خصصت بشذاذ الأفراد الذين فسدت نفوسهم وطبائعهم ، وساءت أخلاقهم وأمزجتهم ، فأصبحت هذه العقوبات لهم كالدواء يتخذ مرة للشفاء ، وأخرى لتسكين الألم .

فاذا كان الحجاب كما قلنا ليس إلا وسيلة صناعية لاتقاء الشر ، وكانت هذه الوسائل لاتتخذ إلا لشذاذ الأفراد ، فلا شك فى أن الحجاب لا يصلح لأن يتخذ قاعدة اجتماعية تبنى عليها نهضة الأمة ويرجع إليها فى إصلاح النفوس وتهذيب الأخلاق . ولو علم الله فى الحجاب خيرا لشرعه فى دينه ، ولجعل له ضربة لازم على نساء المسلمين ، ولكنه عز وجل لم يفعل فكان ذلك آية على أنه إذا لم يكن مصدرا للشر فليس مصدرا للخير .

وأما الثالثة فنظن أن « الهداية » توافقنا عليها أيضا ، فانها تعلم أن الحجاب سبيل من سبل النفاق ، وأنه يجرى تحته من السيئات والآثام ما لو ظهر لنا لاستطعنا علاجه . وما نظن « الهداية » تؤيد سبيلا من هذه السبل . حاشا لله ما علمنا على « الهداية » إلا الدعوة إلى الحق والحث عليه ، وإلا تأييد الصراحة والذود عنها . وبعد فهل تنكر « الهداية » أن الحجاب مجلبة لسوء ظن الرجل بزوجته ، والمرأة بقريبتها إذا كان لأحدهما حظ من علم أو نصيب من معرفة ؟

كلا ، فليس مصدر الحجاب من الرجل إلا الأثرة واحتقار المرأة واتهامها بسوء السيرة فى نفسها . وليس مصدر خضوع المرأة للحجاب إلا سوء ظنها بنفسها ، وإلا ضعف عزيمتها وغلوها فى الخوف من الرجل . ولا شك فى أن هذا كله لا ينتج أقل من البغض والنفور بين الزوجين . و « الهداية » تعلم حق العلم نتيجة ذلك ومغيبته .

إن العلم الصحيح يؤيد الحرية ويعت الرق ، وعلى ذلك فهو لا يؤيد الحجاب لأنه نوع من الرق والاستعباد . فاذا تعلمت المرأة و « الهداية » من أشد الدعاة إلى تعليمها فكيف يتفق نصيبها من العلم والعمل ؟ أليس في ذلك اجتماع النقائص وائتلاف الأضداد ؟

إن المرأة لا يسكتها على الحجاب إلا الجهل . فاذا تعلمت وجب علينا أن نحسب لعلمها حسابا كبيرا ، فليس من البعيد بعد أن يتعلم النساء تعلمنا صحيحا أن تكون منهن قوية العارضة ، شديدة الشكيمة . وليس من البعيد أن تكون بينهن أمثال أولئك السيدات اللاتي كن يجهرن بالحق ويدعون إلى الله في وجه الأئمة من خلفاء المسلمين ، ولا سيما معاوية^(١) فان أخبار النساء معه أكثر من أن يحيط بها هذا الفصل .

أليس عجيبا ألا نعرف حربا من حروب المسلمين أيام الخلفاء الراشدين لم تشهدوا النساء ولم يبلن فيها أحسن البلاء ؟ ثم نقول بعد ذلك بوجوب الحجاب ! أليس معنى هذا أننا نريد أن نستن سنة جديدة ؟ إننا قد أطلنا في هذا الموضوع ولكننا ملجئون إلى ذلك لتبين مزار الحجاب . ولكننا لم ندفع إلى الآن اعتراض « الهداية » علينا غير أننا لا نحتاج في ذلك إلا إلى أن نفرق بين نظامنا ونظام الأمم الغربية . هنالك أمم قد استرسلت مع أهوائها وشهواتها ، لم يزعمها دين صحيح . وهنالك أمم لا تريد من الحرية إلا ما أباح لها دينها الخفيف ، وشتان بين المذهبيين . إذا كنا نخشى من السفور شرا فلنعلم قبل كل شيء أن هذا الشر ليس لازما « ذاتيا » للسفور ، وإنما هو نتيجة لازمة لفساد النفوس ، تقع في السفور وتحت الحجاب على

السواء ، وليس لها من دواء إلا أن تتوخى فى نهضتنا إصلاح نفس المرأة والرجل إصلاحا دينيا منذ النشأة الأولى ، فنشعر قلبيهما حب الفضيلة وبغض الرذيلة ، ونملا فؤاديهما رهبة من الله ورغبة فى مرضاته ، وهذا هو الدواء النافع لهذا الداء العضال . وسنتقن البحث عنه عند القول فى تربية المرأة بعد أن نقول كلمات فى أحكام الإسلام فى المرأة سواء كان ذلك فى القرآن والطلاق ، أم فى غيرها من الأحوال المدنية .

٣ - الزواج

الحرية المطلقة التى اكتسبها الرجل والمرأة بحق الحياة فحسب تبيح لهما أن يجتمعا على شكل من أشكال الاجتماع كما هو شأن غيرها من أنواع الحيوان غير أن الانسان لم يخلق لما خلق له الحيوان فيعيش عيشته ، ويحيا حياته ، ويأخذ ماله من الأشكال والأطوار الخاصة والعامة . وإنما خلق لغاية أجل وأرقى من الغاية التى خلق لها الحيوان . فيجب أن تكون حياته على شكل يلائم هذه الغاية ، ونظام يناسبها . ولا يمكن أن يكون هذا الشكل صناعيا يطلبه الانسان عن روية واختيار ، وإنما هو فطرى وجد مع الانسان منذ استقل على هذه الأرض . وأول ما عرف من هذا الشكل هو الاجتماع الذى لا يستقيم للانسان بدونه أمر ، ولا تحسن له حال . وقد فرغ الناس من عشرات القرون من إثبات أن الانسان اجتماعى بطبعه ، وزيد الآن أن نبسط القول فى أساس هذا الاجتماع الذى لا يصلح إلا به ، ولا يقوم إلا عليه : وهذا الأساس هو الزواج ، فإن أقل مرتبة يتصورها العقل من مراتب الاجتماع هو اجتماع اثنين .

وإنما تعظم فائدة هذه المرتبة وتكمل إذا كان هذان الاثنان هما الرجل والمرأة فإن اجتماعهما سبيل النسل ، والنسل سبيل الخلود ، والخلود أبعد ما يتمناه الانسان .

إذن فأول اجتماع تمس إليه الحاجة ، وتدعو إليه الضرورة هو اجتماع الرجل والمرأة لأن به بقاء النوع وحياته . وهذا قدر مشترك بين الإنسان والحيوان ، لأنه السبيل إلى بقاءهما . وإنما امتاز اجتماع الإنسان من اجتماع الحيوان بخواص لا توجد في غيره لأن مصدرها الميزة الحقيقية للانسان التي هي رقى الغاية المقصودة من نفسه الناطقة .

هذه الغاية هي التي جعلت لاجتماع الإنسان في أقل مراتبه نظاماً خاصاً نسميه بالزواج . ولسنا نريد من الزواج مطلق الاقتران ، وإنما نريد به الاقتران على شكل خاص وأطوار معينة ونظام محدود .

هذا الاقتران الذي شعر الإنسان بالحاجة إليه شعوراً فطرياً ، ووضع له العقل كثيراً من النظمات الصالحة وغير الصالحة ، ووضعت له الشرائع السماوية كذلك في كل عصر نظاماً يلائم حال الإنسان فيه ، حتى جاءت الشريعة الاسلامية فوضعت له نظاماً دائماً صالحاً لكل زمان مذ آنت من حال الانسان قوة على قبول وحدة النظام واستمراره كما وضعت للانسان قانوناً واحداً في جميع أحواله وأطواره .

وهذا النظام هو الذي نريد أن نبحث عنه الآن . لا نستنبطه إلا من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم . ولا نبالي أوافق رأينا هذا رأى الفقهاء فيما استنبطوه أم لم يوافقوه ، فنقول :

ذكر الله عز وجل نعمة الزواج في القرآن أكثر من مرة وامتن بها على عباده وجعلها في بعض الآيات علة لما يطلبه منه من التقوى ، وذلك حيث يقول في أول سورة النساء (١٠ - طه حسين)

« يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »

فانظر كيف جعل أول علة للتقوى أنه خلقنا من نفس واحدة ، وأنه جعل من هذه النفس زوجها . وفي ذلك أشار إلى ما يجب من الوئام والاتحاد بين الزوجين ، لأنه أصل الخلقة وطبيعة الفطرة . ثم أتى على الفائدة الحقيقية للزواج وهو النسل الذى يضمن البقاء لهذا النوع ، وذلك فى قوله « وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً »

وقد ذكر الزواج فى آية أخرى من القرآن الكريم وفصل فيها ما يجب أن يكون عليه الزوجان من الألفة والاتفاق ، وذلك حيث يقول فى سورة الروم « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً » فقد ذكر فى هذه الآية ما ذكره فى الآية الأولى من أنه خلق أزواجنا من أنفسنا ، وإنما أشار بذلك فى هذه الآية لأنه كما عرفت مدعاة إلى الوفاق ، وسبيل الاتحاد . على أنه قد ذكر هذه العلة نصا فى قوله « لتسكنوا إليها » فان القارىء إذا كان على شئ من السليقة العربية فهم من هذه الجملة الموجزة ما لا يستطيع أن يبسطه فى القول المطول والكلام الكثير . وأى شئ أكثر تأثيراً فى نفس الانسان ، واستثارة بقلبه من سكون الرجل إلى زوجه ؟ هذا المعنى الذى يشعر الانسان بقوته من أن يستطيع التعبير عنها . فكما أن الانسان إذا اطمأن إلى نفسه فى وقت الدعة سكن وارتاح وشعر بكثير من الهدوء والطمأنينة . كذلك إذا خلا إلى زوجه التى هى شطر نفسه وضياء حياته .

ثم أتى بعد ذلك عل ما يجب أن يكون بين الرجل وزوجه من الحب والشفقة اللذين هما طبيعة الزواج فقال « وجعل بينكم مودة ورحمة » هذه المودة والرحمة التي هي أصل الحب في هذه الحياة سواء أكانت بين أفراد الأسرة الواحدة ، أم بين الرجل وصاحبه من غيرها .

ومن هنا تعرف مقدار عناية القرآن بما يجب أن يكون بين الزوجين من المحبة والألفة اللتين هما مصدر السعادة الدائمة والحياة الصالحة ، واللتين يقوم عليهما أمر الانسان في جميع شئونه وأعماله .

وسنبحث عنهما وعن مصدرهما بعد أن نستنبط من كتاب الله وسنة رسوله أحكام الزواج .

فلنتنقل الآن إلى أول حكم في الزواج جاء به القرآن الكريم ، وهو القول فيمن يجوز أن يكون بينهما الاقتران . وقد عنى القرآن بهذه المسألة عناية شديدة ، ولكنه مع ذلك كفانا مؤنة البحث والتنقيب عن العلة لهذه العناية . وذلك هو شأن القرآن الكريم في أكثر أحكامه . لا يأتي بالأصول والقواعد مرسلة بل يتبعها في أكثر الأحيان بعللها ونتائجها ، وتلك هي المزية الخاصة التي لم تتفق لقانون من القوانين .

يقول علماء التشريع إن القانون إنما يقبله الناس ويطيعون إليه إذا اشتمل على قليل أو كثير من علل الأحكام . وهذا الرأي الذي عرفه الناس في هذا العصر الحديث قد سبق إليه القرآن الكريم منذ ثلاثة عشر قرناً ، فهو كتاب عبادة وقانون ، وحكمة وتشريع .

كل ذلك قد جمعه القرآن إلى ما اشتمل عليه من جميل الوصف وحسن

القصص . ومن كل حكمة بالغة وموعظة نافعة ، وأمثلة رائعة . وحسبك بهذا ميزة للقرآن الكريم على غيره من كتب القوانين والشرائع .

* * *

منع القرآن الكريم الاقتتان بين الرجل والمرأة إذا كان أحدهما مشركا ، وذلك حيث يقول في سورة البقرة « لا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم . ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم . أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بأذنه ويبين آياته للناس لعلهم يتذكرون » .

قالوا : نزلت هذه الآية إذ أراد رجل من المسلمين أن يتزوج بامرأة مشركة كان يهاوها في الجاهلية . فاستأذن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك فنزلت هذه الآية مؤذنة بالتحريم . ومنها نستنبط أن الرجل ليس له أن يتزوج المشركة إن كان مسلما ، ولا المسلمة إن كان مشركا . وقد ذكر الله هذا الحكم وأتبعه بالعلة التي حملت عليه فأغنانا بذلك عن البحث والتفكير كما قلنا آنفا ، وذلك في قوله تعالى « أولئك يدعون إلى النار والله يدعو إلى الجنة والمغفرة بأذنه »

فمعنى هذا أن عشرة المشرك أو المشركة سبيل إلى الفساد ، ومدعاة للجهود وسوء العقيدة . فإن ما بين الزوجين من الاتصال ، ومالكليهما على صاحبه من السلطان النفسى خليق أن يؤثر في قلب الآخر فيلحق إليه بشيء من عاده وأخلاقه ، وفي ذلك كما قلنا مظنة السوء والفساد .

نعم قد يقال إن المسلم إذا تزوج المشركة كان خليقا أن يؤثر في نفسها تأثيرا حسنا بماله عليها من حق وسلطان إذ هو صاحب البيت ورئيس

الأسرة ، فلم لا يباح للمسلم أن يتزوج المشركة ؟ بل لماذا لا تكون هذه الخطة طريقا إلى نشر الإسلام وهداية الناس إليه ؟

فنقول : قد كان يصفى لهذا القول ويلتفت إليه لو أنه حسن صحيح من جميع جهاته . ولكن للفساد إليه أكثر من سبيل . فنحن لا ننكر أن للرجل على المرأة سلطانا وقوة ، وأنه قادر على التأثير في نفسها ، لكننا مع ذلك لا نستطيع أن نفعل عن أن للمرأة من الحول والطول على زوجها ما يعدل هذه القوة وذلك السلطان بل يفوقهما في كثير من الأحيان . فكثيرا ما يذهب الرجل ضحية لهوى في نفس زوجته . وقلما تنصاع المرأة للرجل في ماله من الأهواء والميول . ولئن كنا نظن خطأ أن المرأة ضعيفة مستذلة ، فإن على رأس الرجل من هذه الذلة وذلك الضعف حساما مرهفا وسيفا صقيلا ، فكثير من الرجال من ذهب فريسة ضعف المرأة وذلتها على مابه من قوة وعزة . ومن أراد أن يتبين ذلك فلا سبيل له إليه إلا التجربة .

على أن الخطر الذي نخشاه من اقتران المسلم بالمشركة ليس مقصورا على الرجل وحده ، وإنما هو متعدد إلى الأبناء والبنات . فمن الذي يستطيع أن ينكر سلطان الأم على نفس طفلها وجسمه ، وعلى طباعه وأخلاقه ؟ وقد بينا في فصولنا الماضية أن المرأة هي قالب النوع يفرغه الله فيه ويصوغه على مثاله في جميع الأحوال والشئون . فالنتيجة اللازمة لاقتران المسلم بالمشركة هي تطرق الفساد إلى عقائد الرجل وأخلاقه ، ثم نشوء ولده نشأة الكفار والمشركين . ولا نشك في أن هذا يكفي كفاية تامة لمنع اقتران المسلم بالمشركة . فإن الإسلام أحوج إلى رجل مسلم ونسل مسلم منه إلى رجل مختلط العقيدة ، ونسل ضال فاسد القلب ، مدنس النفس برذائل الشرك ونقائصه . وإذا أضفت إلى هذا أننا ملزمون بنشر الإسلام ومحو آثار الشرك عرفت أن في هذا الحكم للعالم خيرا جما ونفعا كبيرا .

فأما اقتران المشرک بالمسلة فلا نظن إلى الجدل فيه سبيلا .

بقيت مسألة لم نقل فيها كلمة إلى الآن ، وهى اقتران المسلم بالكتابية ،
والمسلة بالكتابى . فنقول : اختلف الناس فى الآية التى يستنبط منها
الحكم فى هذه المسألة .

فزعم بعضهم أن الحكم فيها مأخوذ من الآية السابقة ، وأن
أهل الكتاب مشرکون كما سموا بذلك فى بعض آى القرآن ،
ولكن هذا خطأ ، فكثيرا ما ذكر أهل الكتاب فى القرآن بهذا العنوان .
وذكر معهم الوثنيون بعنوان المشركين . ومن ذلك قوله تعالى « لم يكن
الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيمهم البينة »
وأمثال هذه الآية فى القرآن كثير .

وزعم بعضهم أن الحكم فى ذلك مأخوذ من قوله تعالى فى سورة المائدة :
« وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم . والمحصنات من
المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم »
قالوا : ولا سبيل إلى أن تكون الآية الأولى ناسخة للآية الثانية لأن
سورة البقرة نزلت قبل المائدة .

وقال أصحاب الرأى الأول إن هذه الآية الثانية ناسخة للآية الأولى أو
مخصصة لها .

ومن هنا عرفت أن القرآن يبيح للمسلم تزوج الكتابية بنص الآية ،
وأن الاختلاف السابق لا أثر له .

غير أننا إلى الآن لم نعرف الحكم فى تزوج الكتابى بالمسلة فنقول :
أجمع الناس على أنه غير صحيح ، وذهبوا فى استنباطه من آى القرآن مذاهب
شتى ، فاستنبطه بعضهم من آية البقرة . وقد عرفت أن هذا خطأ لأن
الكتابى ليس مشركا .

واستنبطه بعضهم من آية المائدة ، قالوا : أحل الله في هذه الآية للمسلم أن يُتزوج الكتابية ، ولم ينص على جواز تزوج الكتابي بالمسلمة ، فكان هذا وما يضاف إليه من السنة والإجماع آية على بطلانه .

ورأى بعضهم أن هذا الحكم يؤخذ من قوله تعالى في سورة النساء « ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا » قالوا : السبيل : الولاية ، ولا شك في أن الرجل ولى زوجه ، فلا يجوز أن يكون الكتابي الكافر ولى المرأة المسلمة .

نقول : نص القرآن الكريم على الحكم في هذه المسألة حيث يقول في سورة الممتحنة « يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله يعلم بإيمانهن . فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعهن إلى الكفار ، لاهن حل لهن ، ولا هم يحلون لهن » .

فمعنى هذه الآية أن المؤمنة إذا هاجرت من بلاد الكفار لم يحز للمسلمين أن يردوها إلى زوجها لأنها لا تحل له ، ولأنه لا يحل لها . ولا شك في أن العلة لعدم الحل هي إيمانها وكفر زوجها .

• • •

والكفر كما يستفاد من نصوص القرآن أعم من الشرك ، يطلق على المشرك والكتابي ، وذلك ظاهر من قوله تعالى « لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب » فقد ثبت من هذا كله أن القرآن الكريم يبيح للمسلم أن يقترب بالكتابية ولا يبيح للكتابي أن يقترب بالمسلمة .

غير أنه يقال إن الذي تخافونه من اقتران المشركة بالمسلم موجود في اقتران الكتابية به ، فلماذا منعت ذلك وأجرت هذا ؟

فنقول : إن هناك فرقا كبيرا بين المشركة والكتابية ، وهذا الفرق شديد التأثير في نفس كليهما . فإن الكتابية توافق المسلم على الأصل الأول من أصول الدين ، وهو التوحيد ، وتوافق على الأصل الثاني وهو الإيمان بالنبوات . وإنما تختلف معه في شيء واحد وهو الإقرار بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم . فالمسلم يعترف بها ، والكتابية تنكرها ، ويتبع ذلك اختلاف في الأحكام والفروع .

فأما المشركة فإنها تخالف المسلم في جميع أصول الدين ، فهي لا تؤمن بوحدة الله ولا بنبوة أنبيائه . ولا شك في أن هذا الاختلاف أجل خطرا وأشد أثرا من ذلك . فنحن نعلم أن التوحيد هو ملاك الفضائل وقوام الأخلاق الحسنة . وأن الشرك مصدر النقائص وجرثومة كواذب الأخلاق . فإذا اتفق المسلم والكتابي على أصول الدين وأخصها التوحيد الذي تقوم عليه الأخلاق ، فلا جرم أنه لم يبق بينهما من الخلاف ما يمنع القرآن ، لاسيما وأن ما للرجل من القوة والسلطان على المرأة ، وما للمرأة من الحب والطاعة للرجل كفيلا بأن يضيق بينهما مسافة الخلف على ما بها من ضيق قديم .

أقول : إن مما لا شك فيه أننا الآن أصبحنا في عصر غير العصور الماضية تغيرت أخلاقنا من حسن إلى قبيح ، ومن جميل إلى ردى .

ذهبت مقوماتنا وضعفت أنفسنا ، وزالت مميزاتنا الجنسية ، وأصبح من اليسير أن تندمج طباعنا في طباع غيرنا من الأجانب . بل أصبح تقليدنا للفرنج أمرا محببا إلى نفوسنا ، مستحسنا منها . فنحن نقلدكم في الحسن والقبيح ، ونقفو أثرهم في النافع والضار . وليس لنا من

قوة الأنفس والأخلاق ما يكفيننا شر التقليد ، فإن أحدنا يفتن بكل شيء صدر عن الفرنج ، لا يبالي أصدر عن رجل أم امرأة ، غن كبير أم صغير . فلا شك عندي في أنه يجب علينا أن نحتاط كل الاحتياط في استعمال هذا الحكم ، أي إباحة تزوج المسلم بالكتابية . ولست أرى على من بأس إن قلت إنه الآن حرام ممقوت . كثير منا يتزوج الكتابيات من أهل أوروبا ورغبة في جاهن وما يشاع من علمهن وأدبهن ، إلى غير ذلك . ولكن ماذا تكون النتيجة لهذا الزواج ؟ لاشيء إلا أن يصبح الرجل وبيته وأبنائه وبناته أوربيين في كل شيء اللهم إلا أفراد أفذاذ لا يعول عليهم في الأحكام العامة لأنهم قليلون .

إذن فاستطيع أن أحظر تزوج المسلم بالكتابية من الفرنج ، أو على الأقل أضيق دائرته تضيقا شديدا لاسيما إن أضفت إلى ما سبق فساد الدين في نفوس الفرنج فسادا مطلقا حتى أشرف على الانحفاء .
والآن أراني قد أطلت فلنقف بالقراء عند هذا الحد ، وموعدنا الجزء الثاني لإتمام هذا البحث ، أي القول فيمن لا يجوز الاقتران بينهم مع الاتفاق في الدين .

* * *

وقف طه حسين عند هذا الحد ولم يعد إلى موضوع المرأة . وذلك لأن الشيخ عبد العزيز جاويز رد عليه رداً غنيا فيما يتعلق بمشكلة السفور والحجاب . وما هو نص رده :

تريد « الهداية » اليوم أن تناقش الأستاذ كاتب مقالات المرأة فيما ذهب إليه من رأى ، وما رده على الهداية فى الجزء الثانى . ولسنا نريد أن نطيل فى هذا الموضوع ، فقد نرى أن إطالة القول فيه تضر أكثر مما تنفع . فان خيالاً لعب برأس بعض الكاتبين فخيل إليه أن الحجاب شقاء للمرأة وأنها تألم منه .

حمله على أن يفتح باباً كان مقفلاً ولم نكن فى حاجة إلى ولوجه . فقد كانت المرأة ولا تزال راضية بالحجاب ، راغبة فيه ، حريصة عليه . ترى رفعه سبة وعارا حتى جاء أصحاب هذا الخيال فنبهوها إلى ما كانت غافلة عنه ، نافرة منه . وهو لا يزيدنا خيراً ولا يدفع عنها شراً . فكان من ذلك ما نسميه مسألة « الحجاب والسفور » تلك المسألة التى لا نرى فى البحث عنها من الخير قليلاً ولا كثيراً .

نعم نحن لا نريد أن نطيل فى هذا الموضوع ، وإنما نقول إن رد الأستاذ يعتمد على أصلين أوليين :

أحدهما : ظنه أن الحجاب إنما اصطنع ليكون عقوبة للمرأة وحجراً عليها .

الثانى : قوله إن المرأة والرجل إذا نشأ على قواعد الدين وأصوله وهذبت أخلاقهما أمناً عادية الشر ولم يحتاج إلى حجاب ولا نقاب .

أما الأصل الأول فنحن نخالف الأستاذ فيه ، ونقول إن الحجاب لم يتخذ عقوبة للمرأة ولا حجراً عليها . وإنما اتخذ تكريماً لقدرها وتعظيماً لأمرها ، ودفعاً للأذى عنها . فانتنا لا نخاف المرأة على نفسها فقط ، بل نخافها ونخاف معها الشبان وما يتصفون به من سوء الخلال وكواذب الأخلاق .

وأما الأصل الثانى فنحن نوافق الكاتب عليه . نقول إن تهذيب الأخلاق وتربية النفوس على أصول الدين يغنيان أكثر من غناء الحجاب والتقاب . ولكن أين السبيل إلى ذلك ؟

تلك هى المسألة التى لا يستطيع أحد أن يجيب عليها إلا بالقول ، حتى إذا آن له أن العمل وحينه وقف موقف الحائر ، لا يدرى أيقدم أم يحجم . ولا يعرف إلى أين يذهب ولا من أين يجىء .

نحن لانظن أن الكاتب ينسى أننا مدفوعون إلى طريق التمدن الحديث ، وقد أسرعنا إلى هذه الطريق حتى جرينا فيها شأوا بعيداً أصبح من العسير إن لم يكن من المستحيل معه أن نرجع إلى طريقنا الأولى . ومعنى ذلك أن رجوعنا إلى التربية الدينية ، تربية الصدر الأول للإسلام أصبح غير ميسور بعد أن غلبتنا نظمات الإفرنج على نفوسنا ومقوماتنا الخاصة . ومبلغ القول إن آراء الكاتب فى الحجاب والسفور نظرية أكثر منها عملية . فلينظرنا الأستاذ إلى اليوم الذى تتحقق فيه آماله وأمانيه فى تربية الرجل والمرأة . ثم ليطالبنا بعد ذلك برفع الحجاب ، وليبح لنفسه ولغيره الخوض فى هذا الموضوع .

طه حسين السياسى

أول شعر سياسى نظمته طه حسين قصيدته التى رثى بها حسن عبدالرازق ونشرتها الجريدة فى أول يناير سنة ١٩٠٨ ولا شك فى أن صلة المودة التى كانت بينه وبين آل عبد الرزاق هى التى دفعته إلى نظم هذه القصيدة .

وفى سنة ١٩٠٩ أنشأ عبد العزيز جاويز مدرسة ليلية ليتعلم فيها طلبة الأزهر اللغة الفرنسية . وكان طه حسين يتردد على هذه المدرسة فاتصل بالشيخ جاويز اتصالاً قوياً . واعتنق مبادئ الحزب الوطنى ونظم فى الدعوة إلى جهاد المحتلين وطلب الدستور قصائد فيها روح طيبة .

وفى سنة ١٩١٢ انهارت قيادة الحزب الوطنى بعد أن غادر محمد فريد وعبد العزيز جاويز مصر ، وتضعفت أحوال الحزب وبيعت أمتعة ناديه . فتخلى طه عن مبدأ كان يدعو إليه الحزب الوطنى ، وهو العمل على قيام جامعة الشعوب الإسلامية ، وتوحيد المسلمين فى دولة واحدة تجمع شملهم . وكتب فى سنة ١٩١٣ عدة مقالات فى « الجريدة » يروج فيها للقومية المصرية . وكان لطفى السيد قد سبقه إلى ذلك فنشر مقالات تحت عنوان

« المصرية » ومما جاء^(١) في إحداها :

« كان من السلف من يقول بأن أرض الإسلام وطن لكل المسلمين .
وتلك قاعدة استعمارية تنفع كل أمة مستعمرة تطمع في توسيع أملاكها
ونشر نفوذها كل يوم فيما حوالها من البلاد . تلك قاعدة تتمشى بغاية
السهولة مع العنصر القوى الذى يفتح البلاد باسم الدين ، ويجب أن يكون
أفراده كاسبين جميع الحقوق الوطنية فى أى قطر من الأقطار المفتوحة حتى
لا تنقض أمة عهدا ، ولا تتبرم بالسلطة العليا ، ولا تتطلع إلى الاستقلال
بسيادتها على نفسها . أما الآن وقد أصبحت أقطار الشرق غرضا لاستعمار
الغرب ، وانقطع أمل هذه الأمم الشرقية فى الاستعمار ، ووقفت أطماعهم
عند حد المدافعة لا المهاجمة ، والاحتفاظ بسلامة كل أمة فى بلادها من أن
تمحى جنسيتها ويفنى وجودها . وأكبر مطمع لكل أمة شرقية هو
الاستقلال . أما الآن والحال كذلك فقد أصبحت هذه القاعدة لا حق
لها من البقاء ، لأنها لا تتمشى مع الحال الراهن للأمم الإسلامية وأطماعها .
فلم يبق إلا أن يحل محل هذه القاعدة المذهب الوحيد المتفق مع أطماع كل
أمة شرقية لها وطن محدود ، وذلك المذهب هو مذهب الوطنية » .

ولا شك فى أن هذا الكلام يدل على جهل قائله وفساد تفكيره .
فعلماء السلف الذين قالوا إن أرض الإسلام وطن لكل مسلم لم تكن لهم
أغراض استعمارية كما يزعم هذا الجاهل الأحمق ، وإنما كان غرضهم أسمى من
ذلك بكثير . كان غرضهم جمع كلمة المسلمين تحت راية واحدة ليستطيعوا
الدفاع عن أنفسهم أمام أعدائهم . وكان مسيحيو أوروبا يريدون القضاء على

العالم الاسلامى ، معتبرين أن الاسلام كفر ، وأن دينهم المسيحى يفرض عليهم محو هذا الكفر وإزالته . ولم يفرقوا بين مسلم ومسلم ، فكلهم فى نظرهم كفار يحمل قتلهم . وقد ظهرت هذه النزعة بعد طرد المسلمين من أسبانيا ، وفى خلال الحروب الصليبية . فكان من مصلحة المسلمين أن يتحدوا فى دولة واحدة ، وأن تكون بلادهم وطنا واحدا لهم .

وقد جاءت دعوة لطفى السيد إلى المصرية فى وقت اشتد فيه الصراع بين المسلمين ومسيحيي أوروبا فى البلقان وشمال أفريقيا ، وتجلت فى خلال هذا الصراع الروح الصليبية بأجلى مظاهرها . فقد أعمل مسيحيو البلقان السيف فى رقاب المسلمين ، وقتلوا منهم الألوف فى غير شفقة ولا رحمة ، ولم يستثنوا الشيوخ والأطفال والنساء . ولم ينهض أحد من مسيحيي الغرب لاستنكار هذه المذابح الشنيعة ، وقد خطب لورد كرومر فى مجلس اللوردات فقال ^(١) « خابت آمال الذين يظنون أن الجهاد فى سبيل المسيحية هو جهاد فى سبيل المروءة والفلاح . ولا يسعى إلا المقاتلة بين الغيظ الشديد الذى كان بعض الطبقات فى هذه البلاد يظهرونه لما كانت المسألة مسألة ذبح الترك للمسيحيين ، وبين ما يظهرونه الآن من شدة الجود لما صارت المسألة مسألة ذبح المسيحيين للترك » وهكذا نجد أنه إذا وقع اعتداء على المسيحيين شمر زعماء أوروبا وتسايقوا فى اتهام المسلمين بالتعصب وكالوا لهم المطاعن والمثالب . أما إذا وقع اعتداء على المسلمين كما حدث لمسلمى البلقان وطرابلس الغرب وبقية شعوب شمال أفريقيا ، فانهم يلتزمون الصمت ، بل وينتحلون الاعذار للمعتدين .

فلا عجب أن صادفت الدعوة إلى المصرية معارضة قوية ، لأنها كانت تعنى انعزال المصريين ووقوفهم موقفاً سلبياً إزاء ما يقع على إخوانهم المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، فلا يمدون إليهم يد المساعدة ، ولا يواسونهم ولا ينتصرون لهم . وكانت هذه الدعوة في صالح المستعمرين .

وكان طه حسين بالنسبة للطفى السيد كاللبغاء ، يردد كل ما يقوله أستاذه دون وعى أو تفكير . فانطلق يكتب سلسلة مقالات تحت عنوان المصرية ، يخلط فيها الحق بالباطل ، ويجمع بين الجهل والتضليل ، والغش والتزوير . قال في أول مقال له ^(١) في هذا الموضوع :

« نستبشر بما تلقى دعوة المصرية في مصر من كيد ومقاومة ، وبما يحتمل الداعون إليها من سفه الذين لا يعلمون ، فان ذلك آية بينة على قوة الدعوة على المغالبة وصلاحها للبقاء . وليست الفكرة يظهرها الكاتب فتذهب مع الريح لا تلقى معارضة ولا تصادف ممانعة إلا فكرة فائرة لا تستحق الحياة ، وليس الكاتب يكتب الفصول المبسوبة والرسائل المطولة فلا يحفل به الوجود ، ولا يتحدث له أفكاره خصوصاً ألداء يجادلونه ويناضلونه إلا كاتباً مثلوم الحد ، مفلول الشباه ، يكتب وكأنه مستغرق في نوم عميق ، فهو خليق أن لا يحفل الناس بما يقول » .

« على ذلك نستقبل مع السرور والابتهاج معارضة الكتاب لدعوة المصرية والجادين فيها . وتأخذ أنفسنا بتأييدها والدود عنها . وندعو العقلاء من أنصار مصر وشيعتها أن يشاركونا في ذلك حتى تأخذ الفكرة نصيبها من الوجود الكامل والحياة الصالحة ، فان رقى الأمة في أطوارها الاجتماعية يستحيل أن يكون رقىاً معقولا مؤدياً إلى الاستقلال إلا إذا بنى

من الاعتراف بالشخصية المصرية ، والاذعان لحكمها على أساس متين » .

« نسعى إلى الاستقلال ونجد فيه ، ونلج على الحكومة أن تعطينا من الحرية السياسية حقنا الفطري ، ونسمو إلى أن نكون أمة راقية ذات مكان رفيع ومنزلة سامية بين الأمم . وكل هذا حسن وواجب أيضاً ، ولكنه لا يفيد ولا خير فيه إذا لم تكن قاعدته الأولى أن مصر للمصريين ، وأن المصريين لمصر . أى أن أمة أخرى من الأمم لا ينبغي أن تشارك المصريين في بلادهم ، وأن أرضاً أخرى لا ينبغي أن تشارك مصر في قلوب أبنائها . نكثر من ترديد هذه الصيغة « إن مصر للمصريين » ويجب علينا قبل ذلك أن نكثر من ترديد صيغة أخرى ليست بأقل منها خطراً ، وليس نجاحنا رهينا إلا بها ولا موقوفاً إلا عليها وهى أن المصريين لمصر » .

وكان أخطر ما فى دعوة لطفي السيد وبيغائه الصغير طه حسين هو أنها تعنى التخلي عن السودان والملحقات . وقد اعترف الانجليز بفضل لطفي السيد عليهم فى هذا الموضوع فعينوه مديراً لدار الكتب المصرية فى أوائل الحرب العالمية الأولى .

ولم يقبل المصريون هذه الدعوة حتى بعد هزيمة الدولة العثمانية وتقسيم ممتلكاتها بين إنجلترا وفرنسا واختفاء أنصار الجامعة الإسلامية . فقد كان شعارنا فى ثورة سنة ١٩١٩ هو « مصر والسودان لنا » .

وقال لطفي السيد فى إحدى^(١) مقالاته « لو كان الإغريق حينما ملكهم الأتراك خرجوا من قوميتهم ونبذوا حفائظهم الجنسية ، واحتقروا الانتساب إلى بلادهم ، ونسوا أنهم اليونان لبادت شخصيتهم . ولما ت فى

نفوسهم أطماع الاستقلال ببلادهم ، ولاستحال عليهم أن يستردوا شرفها .

فردد طه حسين^(١) هذه الفقرة ، قال « أو ما ترى أن اليونان قد تقلبت عليهم الحوادث ، وعبثت بهم الأيام ، ودالت عليهم الدول ، وهم مع ذلك أمة ما زالت حية مستقلة متميزة عن غيرها من الأمم » .

وهذا الكلام ينطوى على مغالطة تاريخية ، فمن ناحية إن الأتراك لم يفرضوا لغتهم ولا دينهم على الشعوب التي حكموها . ثم ما بال اليونان خضعت للترك حوالى ثلاثة قرون ؟ ولولا مساعدات أوروبا لها لظلت مستعمرة عثمانية مدة أطول . والشعب اليونانى يدين بالمسيحية ، فليس من المعقول أن ينتسب للترك أو يندمج فيهم .

ثم استطرد طه حسين فى مقاله السابق بعد أن تكلم على صلة الإنسان بالأرض التي يسكنها ، فقال « فأنت ترى بعد هذا كله أن الوطنية هي الجامعة الوحيدة المشتقة من الطبيعة الواقعة تحت الحس ، وأن غيرها من الجامعات ليس له ما لها من ظهور الأصل وثبوت ، ومن وضوحه وصراحته . لاشك فى أن الوطنية هي الجامعة الصحيحة التي ينبغى أن تتخذ قاعدة للرقى الاجتماعى الذى تطلبه الأمم الراغبة فى الاستقلال . ذلك واضح لا ريب فيه . والتاريخ ينبئنا أن الأمة التي رغبت عن هذه الجامعة إلى غيرها من الجامعات المرنة التي تضيق ما شاء لها التعصب أن تضيق ، وتتسع ما شاء لها الخيال والوهم أن تتسع لم تستطع أن تحتفظ بحياتها واستقلالها زمنا طويلا . وأن الأمة التي حرصت على هذه الجامعة المنضبطة التي خلقها الله محكمة

(١) - الجريدة فى ٣٠ / ١ / ١٩١٣ .

شديدة الأسر ؛ هي التي لم يستطع مرور الزمان وتعاقب الأحداث أن يضيع استقلالها ، وأن يفنيها في غيرها من الأمم والشعوب .

وقال « إذا كانت مصر قطعة من الأرض ، فلا شك في أنى إنما خلقت منها ، واغذيت بهوائها ومائها وثمراتها ، واستعنت ببحرارها وضياؤها على النشوء والنمو ، وعلى الحياة الصالحة والبقاء الحميد . فن هذه الأرض وجوها يتألف جسمي ، وتتكون أخلاق نفسي . »

وإذا كان وطن الإنسان هو الأرض التي نشأ فيها ، فيمكن أن يقال إن أهل أسوان لا يعترفون بوطن غير الأرض التي ولدوا عليها وعاشوا فيها . ولا شأن لهم بعد ذلك بأهل الإسكندرية ، وهذا خطأ فاحش . فالروابط التي تربط بين أهل أسوان وأهل الإسكندرية هي نفسها الروابط التي تربط بينهم وبين سائر البلاد العربية .

وقال « ولقد ينبئنا التاريخ مع الأسف أن جامعة الوطنية الصحيحة لم تكن أثبت في أمة منها عندهذا الجيل من الناس الذي يسميه علماء الشعوب بالآريين أو الهندو جرمانيين . أما الأمم السامية كما تسميها التوراة وهم العرب وبنو أعمامهم من العبران والكلدان ومن السريانيين والفينيقيين وغيرهم فقد كانت لهم حياة تاريخية واستقلال قديم ، ولكن هذا الاستقلال لم يؤسس على أساس الوطنية المتين ، لأن هذه الأمم ميالة إلى الخيال ، مغرقة فيه ، نزاعة إلى الوهم ، حريصة عليه ، ولذلك لم يكن أسرع من ضياع استقلالها وفنائها في غيرها من الأمم . فقد بادت الأسماء الخاصة لأجيال الساميين ، ولم يبق منها إلا العرب وهم أمة أصبحت الآن مقسمة بين الترك

وغيرهم من أهل الغرب ، أى ليس لها وجود سياسى مع أنها صاحبة الدين والشرعية ، وبها قام الإسلام ودوله الكثيرة . وإلا اليهود وهم أفراد من الناس قد اندمجوا فى الأمم على اختلافها ، فلم يبق لهم من وجودهم القديم إلا هذا الاسم . وحسبك بهذا برهانا على ما قدمناه من أن الوطنية هى الجامعة الصالحة للبقاء ، الكفيلة بحفظ الاستقلال .

وهذا الكلام ينطوى على المغالطة والجهل وسوء الفهم . فقد اتهم العرب بأنهم من الشعوب المفرقة فى الخيال ، النزاعة إلى الوهم ، ولهذا السبب فقدوا استقلالهم فى ذلك الوقت . ولكن هل الشعوب السامية وحدها هى التى فقدت استقلالها فى ذلك الوقت ؟ ألم تكن بلاد إيران مقسمة بين إنجلترا وروسيا ؟ ألم تفقد الشعوب الآسيوية والإفريقية استقلالها السياسى ؟ مع أنها لم ترتبط فيما بينها بجامعة دينية ، وإنما كان كل شعب منها يعيش فى حدود بلاده ؟ ألم تكن بولندا مقسمة بين روسيا وألمانيا ؟ ألم تفقد شعوب البلقان استقلالها السياسى لبضعة قرون ؟

وله من مقال تحت عنوان « المصرية ^(١) والدين » :

« ولست أريد أن أقول إن الدين أيضا خاضع لحكم الوطنية ، وأثر من آثار الأرض التى يسكنها الشعب المتدين ، فإننى أخشى إن قلت ذلك أن لا أصيب ، وبعبارة أخرى أن أرمى بالإلحاد والمروق . وإنما أقول شيئا لا يستطيع أشد الناس حرصا على الدين ورسوخا فيه أن ينكره على أوينقمة منى ، وهو أن الدين بعد أن ينزل به الوحي من السماء ويودعه نفوس الناس

عن طريق الأنبياء والمرسلين - صلوات الله عليهم أجمعين - لا يكاد ينتقل من وطن إلى وطن ، ومن بيئة إلى بيئة حتى يأخذ شكلا خاصا وصبغة معينة هي بتلك البيئة أشبه . ولا تكاد تمر عليه القرون حتى لا يبقى بينه من التشابه في أوطانه المختلفة إلا أنه نشأ من أصل واحد ، وخرج معدنه من منجم معين ، أى لا يبقى بينه من التشابه إلا ما بين أمم الإنسان المختلفة من التشابه الفطرى فى وحدة النوع . فمن هنا ظهر أن الدين على ما فيه من إصلاح للناس وإقامة لحضارتهم وعمرانهم لا يمكن أن يكون جامعة منضبطة للحياة الدنيوية الصالحة .

وهذا الكلام أشبه بالهذيان الذى يصدر عن النفوس المريضة ، والعقول المرتبكة . فإن أركان الإسلام هي فى كل زمان ومكان . ولم يقل أحد إن الصلاة أو الصيام فى بلد كراکش تختلف عنها فى السودان أو إندونيسيا .

وجاء فى للقال المتقدم « إن المسلمين فى عصورهم الصالحة التى ارتقوا فيها إلى الأوج وارتقى معهم الدين ؛ لم يستطيعوا أن يتخذوا الإسلام جامعة سياسية تقوم عليها دولتهم وملسكهم . وأنهم حين عدل الخلفاء عن قاعدة الوطنية أخذت دولهم تهبط ويهبط معها الدين حتى وصلوا إلى ما هم فيه الآن » .

« فإن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وهو أحق خلفاء المسلمين بأن يكون الأسوة الحسنة ، والقُدوة الصالحة ؛ لم يكن يبنى سياسته إلا على أنه عربى يحكم أمة عربية ، ويريد أن تسود هذه الأمة على غيرها من أمم الأرض . وذلك موقوف على أن يحتفظ بهذه الأمة ويضن بها على الاختلاط

مخافة أن تضيم جنسيتها أو تفنى شخصيتها . ولذلك حرص على استقلال العرب في حياتهم ، وود لو استطاع أن يمنع العرب من التحضر ، ويوثق الأسباب بينها وبين البداوة ، ولما لم يجد إلى ذلك سبيلا رجا وألح في الرجاء أن تكون الحياة الحضرية للعرب أشبه شيء بحياتهم البدوية الأولى ، فأمر أن تخطط لهم مدينة الكوفة في أرض أقرب إلى مزاج الصحراء منها إلى مزاج الريف . ولم يرض أن يقسم بين جنده أرضا زراعية يقيمون فيها على أن يكونوا أهل زراعة وحرث لهذه العلة نفسها .

والحقيقة إن عمر كان يرمى إلى غرض يختلف عما فهمه طه حسين . كان يريد أن يحتفظ العرب بصفاتهم الحربية التي مكنتهم من الانتصار على امبراطوريتي الفرس والروم ليواصلوا مهمتهم السامية في تحرير الشعوب من نير الظلم والطغيان ، ونشر العدل في سائر بلاد الله . ولم يكن أهل البلاد المفتوحة قد دخلوا في دين الله ، ولا تعلموا لغة العرب . فنما لوقوع صدام بين الأفراد أشار عمر بأن تكون إقامة العرب على حدود الصحراء ليضمنوا سلامة أنفسهم إذا واجهتهم ثورة . ولهذا الأسباب نفسها منهم من الاشتغال بالزراعة حتى لا يتفرقوا بين شعب لا يؤمن جانبه .

وقال تحت عنوان « المصرية والاستقلال »^(١) :

« إن خصوم المصرية الطالبين للجامعة الإسلامية لابد لهم من إحدى اثنتين : فاما أن يكونوا راغبين في أن تهدر الأمم الإسلامية شخصيتها ، ولا تعترف بما بينها من الفروق في الأخلاق والعادات ، وفي الألسنة واللغات

وفى المنافع والمواطن ، بل تكتفى بهذه الجامعة المقدسة ، وهى جامعة الدين . وإما يكون مذهبهم اعتراف الأمة بهذه الفروق كلها ، واعطاؤها حظوظها من الاعتبار والعناية مع اتخاذ الدين جامعة تدعو إلى المودة والإخاء ، وإلى الحب والتواصل ، وتنبى عن التقاطع والتباغض ، وعن التدابر والعداء . فان تكن الأولى فخلق بهم أن يدعوا طلب الحرية لمصر ، والاستقلال للمصريين . فلان الحرية والاستقلال مع هذه القاعدة التى اتخذوها لسياسة المسلمين ضرب من المحال ، ذلك بأن هذه الفروق التى أهدروها وكرهوا الاعتبار لها والعناية بها لن يهدرها الزمان ولن يغفل عنها ، لأن الله لم يخلقها عبثا . فلا بد أن تعمل عمالها الذى خلقت له . فتغالب أى تغالب ، وتزدحم أى ازدحام . وتكون النتيجة لهذا التغالب استقرار الحكم والسلطان فى أشد الأمم قوة وأعظمها بأسا . وبعبارة واضحة فى أشد الأمم تمسكا بوطنتها وأكثرها احتفاظا بميزاتها الخاصة . فتكون الحكومة العامة أو الامبراطورية الإسلامية التى تحكم فيها أمة قوية قاهرة أمما ضعيفة غافلة . وهذا النحو من الحكومات هو ما شققت به الامم الإسلامية زمنا طويلا . وإن تكن الثانية وهى الاحتفاظ بالوجود الخاص فى كل أمة من الامم مع التواصى بالخير والتعاون على البر بين المسلمين ، فذلك ما نلهج به وندعو إليه .

وكلام طه حسين وإن كان قد صدر منه عن نية حسنة ، إلا أن بعض الكتاب فى الدول الاستعمارية التى كانت تحارب كل فكرة ترمى إلى توحيد كلمة المسلمين قد سبقه إليه .

وقال تحت عنوان «المصرية والمجادلون»^(١) .

زعموا أنهم قادرون على أن يكونوا مصريين محتفظين بمصريتهم ، حريصين على شخصيتهم ، وأن يكونوا عربا ينتمون إلى عدنان وقحطان ، ويلجئون في الضن بهذا النسب والحرص عليه ، والرغبة في مواطنه القديمة ، أى أنهم قادرون على أن يكونوا مصريين وحجازيين أو يمنيين في وقت واحد ، كأن الوطنية لعبة في أيديهم شديدة المرونة ، يعطونها ما أحبوا من الصور ، وما شاءوا من الاشكال . لم أر عقولا بلغت من القدرة على التوفيق بين هذه النقائض كمقول أصحابنا هؤلاء الذين يريدون أن يحتفظوا بشخصية مصر والحجاز واليمن ، أى يجعلوا الوطنية أمرا شائعا ، ثم يزعمون بعد ذلك أنهم وطنيون . ولو أنهم عقلوا ما يقولون ، وفهموا ما يذهبون إليه لقالوا غير خائفين ولا وجلين إنهم لا يزالون يعتبرون أنفسهم في مصر فاتحين ، يؤيدهم السيف وينصرهم السنان »

« جناية ليس أكبر منها ، وذنب ليس أعظم منه خطرا على مصر ، فانهم يريدون بعد ثلاثة عشر قرنا مضت على الفتح أن يقسموا المصريين بعريتهم الكاذبة إلى غالب ومغلوب ، مع أنهم يعلمون أن مزية الفتح والتغلب قد ذهبت من أيديهم منذ زمن بعيد إن صح أنهم من نسل الفاتحين حقا . وقد أصبحوا الآن مغلوبين قد فتحت عليهم بلادهم ، وأصبحت حقوقهم السياسية العامة في أيدي غيرهم بحكم القوة والقانون والتاريخ معا . أفبعد هذا ينبغي أن نتحدث بالفتح ونعتر بالسلطان ونزدهى بأننا من عدنان

أو قحطان ؟ وما المنفعة المادية أو المعنوية التي نكسبها من ذلك الفخر وهذا الازدهاء ؟ ؟ ألا إن الويل لمصر إذا لم تكن قد استطاعت أن تصنع هؤلاء الفاتحين بصيغتها الخاصة في ثلاثة عشر قرناً من الزمان !! »

وهذا خطأ تاريخي انساق إليه متأثراً بأستاذه لطفى السيد الذى كان ينكر على المصريين انتسابهم إلى العرب الاولين .

* * *

ولما جاء من أوروبا كانت الامور قد تغيرت ، وقامت الثورة وظهر على مسرح السياسة رجال لم يكن لهم سابق اشتغال إلا بالوظائف مثل عدلى وثروت . فأخذ طه حسين عقب صدور تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ينشر مقالات في صحيفة الأهرام يتناول فيها السياسة العامة . فقال إن الاستقلال وسيلة لا غاية . إننا نطلب الاستقلال لتكون لنا الحرية الكاملة في تدبير حياتنا والأخذ من لذاتها المختلفة بأعظم نصيب . نطلب الاستقلال لنسعد لا لنكون مستقلين .

ثم انضم إلى حزب الأحرار الدستوريين وكان بينه وبين معظم رجال هذا الحزب صلة مودة ورابطة صداقة . فاعتنق مبادئه وروج لها .

* * *

ولما أصبح موظفاً حكومياً ابتعد عن الاشتغال بالسياسة . وظل كذلك حتى سنة ١٩٣٢ ، وقد أشيع أن وزارة إسماعيل صدق طلبت منه أن يحرر في صحيفة « الشعب » فامتنع ، فنقلته من كلية الآداب إلى منصب

كبير مفتشى اللغة العربية ، وكان هذا للنصب قد خلا بإحالة شاغله الشيخ محمد الغمراوي على المعاش . ولم يسأل أحد طه حسين : لماذا امتنع عن التحرير في صحيفة « الشعب » مع أنه حرر من قبل في صحيفتي السياسة والاتحاد ، ولم تكن صحيفة الشعب أقل من هاتين الصحيفتين؟ ولم رفض أن يتعاون مع وزارة صدقي مع أنه تعاون مع وزارات أخرى لا تختلف عنها كوزارة عدلي ، وزيور ، ويحيى إبراهيم ، وثروت ، ومحمد محمود ؟

وهل كانت الوزارة الصدقية تعتقد أن صحيفتها ستصادف رواجاً ويقبل الناس عليها إذا حرر فيها طه حسين ؟ لقد سبق أن حرر في السياسة والاتحاد فلم يقبل عليهما أحد ، وكل ما كان يحدث أن بعض القراء كان يلتقي نظرة على مقاله إن كان في الأدب ، ثم يرد الصحيفة إلى البائع ويأخذ إحدى صحف الوفد وينصرف لشأنه .

الواقع إن وزارة إسماعيل صدقي أرادت أن تكسب الرأي العام ، أو على الأصح خيل إليها أنها قادرة على ذلك إذا هي أقصت طه حسين عن الجامعة وذكرت أنها تفعل ذلك تحقيقاً لرغبة الأمة التي أبدتها حينما نشر طه كتابه « في الشعر »^(١) الجاهلي ، ولم تجد مسوغاً قانونياً لفصله ، فاكتمت بنقله إلى ديوان الوزارة . وقد ذهب في أول يوم وتسلم عمله وكان من الممكن أن يستمر فيه ، ولكن طلبة الجامعة - وكانوا كلهم وفدين - أرادوا أن يخرجوا مركز الوزارة ، فأضربوا عن تلقى المحاضرات ، وتوجهوا في مظاهرة ضخمة إلى منزل طه حسين وكان ما يزال في الديوان . فلما رجع إلى بيته وجد هذه المظاهرة الضخمة ، وبادر الطلبة لحموله على الأعناق وأخذوا

(١) تكلمنا على هذا الموضوع بالتفصيل في كتابنا « فصول ممتعة » .

يهتفون بحياته هتافا كدوى الرعد . وتضامن معه مدير الجامعة إذ ذاك أحمد لطفى السيد وبعض الأساتذة ، وأعربوا عن رغبتهم فى الاستقالة إذا لم يعد العميد إلى منصبه وانقطع هو عن الذهاب إلى الديوان . واتخذت الوزارة من هذا الموضوع مظاهرة رائعة لكسب رأى العام . فتقدم عبد الحميد سعيد وحافظ رمضان وعبد العزيز الصوفانى ومعهم بعض أعضاء مجلس النواب باستجواب إلى وزير المعارف محمد حلمى عيسى^(١) جاء فيه :

١ - لقد شكرت الأمة لمعالى وزير المعارف موقفه فى رعايته تعاليم الدين وتقاليد البلاد . وقد بدأ تنفيذ ذلك فعلا فأغلق معهد التمثيل والرقص التوقيعى الذى كان لوجوده مساس مؤلم بآدابنا العامة وتقاليد الدين ، ولكننا دهشنا حينما اطلعنا على صورة نشرت بالعدد ١٦٩٥٩ من جريدة الأهرام تمثل طلبة كلية الآداب بالجامعة المصرية حول عميدهم الدكتور طه حسين ، وقد جلست كل شابة إلى جانب شاب ، وبعد أن صرح معالى الوزير بأنه لا يسمح بالاختلاط الجنسى فى معاهد التعليم . فكيف وقع هذا إذن ؟ وكيف تستمر وزارة المعارف على عدم احترام الشعور الدينى والآداب القومية ؟

وقد رد الوزير على هذا الموضوع قائلاً : إن الصورة قد أخذت فى اجتماع الطلبة فى ناديتهم ، ونهت الجامعة على الطالبات بعدم دخول هذا النادى .

٢ - وجاء فى الاستجواب :

ومما يؤلمنا أن الدكتور طه حسين المسئول المباشر عن جميع ذلك هو الرجل المعروف بمصادمة آرائه لنصوص القرآن الكريم والعقائد الدينية .

(١) الشعب فى ٦/٣/١٩٣٢ .

وقد ظهر عداؤه للإسلام في كثير من تعاليمه وآثاره ، منها كتاب الشعر الجاهلي الذي ضجت عند صدوره البلاد بأسرها ، ولا يزال هذا الكتاب يدرس في الجامعة بعنوان « في الأدب الجاهلي » ولكن تغيير العنوان لم يغير شيئاً من روحه اللادينية . فإن السموم التي أراد الدكتور أن ينفضها في كتابه لا تزال ماثلة في كثير من فصوله ومباحثه ، كما وأنه قد زين للشبان وسائل المجون والفسوق في مؤلفه « حديث الأربعاء » ولا يمكن للأمة أن تطمئن إلى وعوده المتكررة بالعدول عن هذا السبيل المعوج ، فسوابقه لا تشجع على تصديقه . وهذه جامعة أميرية مصرية من أعمال دولة دينها الرسمي الإسلام ، ولا نريد مطلقاً أن تخفى حركة التعليم بين جدرانها أغراضاً سيئة كتلك الأغراض المخزية التي بدت للأمة عياناً من بعض المعاهد الأجنبية التي تتخذ العلم ستاراً للتضليل . فكيف سكنت وزارة المعارف عن ذلك كله ، ولم تحرك ساكناً ؟ وكيف تسمح أن يكون ذلك الرجل عميداً لكلية الآداب بالجامعة المصرية بعد أن افترض أمره ، وضجت الأمة من خطر تعاليمه وآرائه التي لا تقل عن خطر دعاة التنصير في البلاد ؟ .

فرد الوزير قائلاً : في سنة ١٩٢٧ تشكلت في وزارة المعارف لجنة من محمد حسنين الفمراوي بك ، وأحمد العوامري بك ، والشيخ محمد عبد المطلب وعهد إليها النظر في كتاب الأدب الجاهلي فقدمت تقريراً جاء في مقدمته :
إن اللجنة قرأت فصول هذا الكتاب فوجدت فيه شيئاً كثيراً يناقض الدين الإسلامي في أصوله وفروعه . ثم سردت الوجوه التي أضعها الكتاب على قرائه من أمر دينهم وهي :

- ١ - أضع عليهم الوحدة القومية والعاطفة الدينية وكل ما يتصل بهما
- « مقدمة الكتاب ومنهج البحث »

٢ - وأضاع عليهم الإيمان بتواتر القرآن وقراءاته ، وأنها وحى من الله « باب اللهجات وانتحال الشعر »

٣ - وأضاع عليهم الاعتقاد فى صدق القرآن وتنزهه عن الكذب .

٤ - وأضاع عليهم تنزيه القرآن عن التهمك والازدراء بما كتب فى سورة الجن ، وفى صحف إبراهيم ، وملة إبراهيم .

٥ - وأضاع عليهم صدق القرآن والنبي فيما أخبرا به عن ملة إبراهيم وصحف إبراهيم .

٦ - وأضاع عليهم براءة القرآن مما رماه به المستشرقون من أعدائه .

وقال الوزير : وألفت لجنة أخرى من محمد حسنين الغمراوى بك وعبد الحميد حسن ، وأحمد أمين فجاء فى تقريرها أن الكتاب حوى نقطاً تمس أصول الدين الإسلامى وهى :

١ - علاقة القراءات السبع بالوحى

٢ - رأى المستشرقين فى مصادر القرآن

٣ - الصلة بين الإسلام وملة إبراهيم .

وقال الوزير : وسئل أساتذة الجامعة عن كتاب الأدب الجاهلى وكتاب حديث الأربعاء ، فأجاب أحمد الشايب بأن الكتابين ليسا مقررين ، وإنما يرجع إليهما فى بعض الموضوعات كغيرهما من الكتب الأخرى . ولا يلتزم الطلبة بالأخذ بما جاء فيهما .

وقد وجه النائب أحمد والى^(١) الجندى سؤالاً إلى الوزير عن المبالغ التى صرفت للدكتور طه حسين لسفره إلى أوروبا لتمثيل الحكومة المصرية أو الجامعة . والفائدة التى عادت على الأمة من هذا التمثيل . وعن تاريخ وأسباب منع صرف الإعانة التى كانت تمنح له نظير مراجعة الترجمة العربية للبحوث التى يضعها الأساتذة الأجانب فى الجامعة .

فرد الوزير بما ملخصه : مثل طه حسين مصر فى عدة مؤتمرات ، ولم يقدم سوى تقرير واحد فى ثلاث صفحات . وكان يستأثر لنفسه بتمثيل مصر ويصحب معه زوجته ، وبذلك تتحمل الخزانة مصاريفها . وقال الوزير إن مصر لم تحصل على أى فائدة من هذه المؤتمرات . وقال : إن طه حسين ظل يقبض عشرة جنيهاً شهرياً لمراجعة ترجمة بحوث الأساتذة الأجانب ، واتضح أنه لم يراجع سوى بحث واحد فى ستين صفحة .

وفى ٢٠ مارس سنة ١٩٣٢ اجتمع مجلس الوزراء وقرر فصل طه حسين من وظيفته . وقد نظم بعض الشعراء القصائد فى مدح إسماعيل صدق ، فن ذلك قول أحدهم :

يكفيك أن أنقذت دين محمد من شر طغيان اللئيم المفسد
لو أن شرع الله يجرى حكمه لقضى بإعدام الشقي الملحد

وعلى الرغم من هذه اللطائف العنيفة التى وجهت إلى صدغه فقد استمر فى تهجمه على رجال الأزهر وتهكمه عليهم وسخريته بهم ، وذلك فى كتابه « فى الصيف » وقد ظهرت الطبعة الأولى منه سنة ١٩٣٣ .

وأخيرا وجد أن الاشتغال بالأدب لا يمود عليه بما يكفيه . ووجد أن حزب الأحرار في حالة إفلاس . فانخرط في سلك كتاب الوفد ، وكان ذلك سنة ١٩٣٣ وبدأ يحرر في صحيفة كوكب الشرق . والظاهر أن هذه الصحيفة لم ترح كثيرا من انضمام طه حسين إلى هيئة تحريرها ، ولم تمكنها مواردها المالية من الاستمرار في دفع مرتبه . فتركها في سنة ١٩٣٤ وحرر في صحيفة الوادى ، وكانت تصدر للإعلانات القضائية . وفي شتاء هذا العام انتهى العهد الصديق وتشكلت وزارة توفيق نسيم ، فأرجعته إلى وظيفته الجامعية .

* * *

وكانت اتجاهاته تهدف إلى خدمة الشعب عن طريق نشر التعليم ومحاربة الفقر والبؤس والشقاء كما يتبين ذلك من كتابه « المعذبون في الأرض » ولم يكن الملك السابق فاروق مرتاحا إليه ، بل كان مبغضاه وناقما عليه لما جاء في كتابه المذكور من تصوير مؤلم لأحوال الطبقات الفقيرة . وحينما قابلت هيئة الوزارة الوفدية الملك سنة ١٩٥٠ لأول مرة خاطبه بقوله : تعال هنا يا طه حسين . أنا أعرف الكلام الذي كتبته عن المعذبين في الأرض ، فترك مثل هذا الكلام ، ولا تعد إليه مرة أخرى .

ولما افتتحت جامعة محمد علي الصناعية ألقى خطبة أمام الملك أشاد فيها بمجد عائلة محمد علي وأطرى الملك ومدحه مدحا عظيما . وكان ينتظر أن ينعم عليه بالباشوية ، ولكنه لم يفعل ، بل قال له « متشكرا يا طه بك » وضغط على كلمة « بك » فلزم داره مدعيا أنه مريض . فأنعم عليه بالباشوية فبرئ لساعته ورجع إلى عمله

خاتمة

ذكرت في المقدمة أنى أدرس طه حسين في حياته الأدبية الأولى حينما كان شابا في نحو العشرين من عمره . فان كنت قد استطردت في بعض المواضع إلى ذكر أشياء خارجة عن الدائرة المحددة للكتاب ، فهو استطراد فيه فائدة للقراء .

وقد وصف طه حسين المنفلوطى بأن به مسا من التسرع . والحق إن هذه الصفة تنطبق على طه حسين نفسه . فاذا أضفت إلى ذلك كلفه بالشهرة منذ صغره ، وحبه للمخالفة والجدال والنقاش ، وما كان يجد من لذة في رمي الناس له بالمرور والكفر ، أدركت أن الطريق كان ممهدا أمامه ليتورط في أمور ما كان ينبغي له كالم أن يتورط فيها .

والآن لا بد لك أن تتساءل : أين مكان طه حسين بين كتاب عصره ؟ وقبل أن أجيب على هذا السؤال أحب أن أذكرك بما قاله العلماء في تعريف البلاغة : لقد عرفوا البلاغة بأنها إيراد المعنى الكثير في اللفظ القليل . وكتب أحد الأدباء لصديق له : اعذرني إن أطلت فلم أجد وقتا للايجاز . ومن المعروف أن طه لا يكتب وإنما يعلل . والوقت أمامه محدود لأن كاتبه لا يمكن أن يلزمه بصفة مستمرة ، ولأن لديه ما يشغله من أعمال الوظيفة واللجان التي يشترك في عضويتها . هو متكلم ولكنه ككاتب يعتبر من رجال الطبقة الثانية . خذ كتابا من كتبه واقراء منه صفحة واحدة ؛ فانك تستطيع أن تحذف سطورا كثيرة من هذه الصفحة دون أن تفقد شيئا من المعنى الذي قصد إليه الكاتب أو تخطئه ، ثم حاول أن تفعل ذلك مع كاتب مثل محمد حسين هيكل فانك لن تستطيع أن تحذف كلمة واحدة دون أن يخل المعنى . فالكلام عنده بقدر المعنى ، ولا هكذا عند طه حسين . وليست العبرة بكثرة النتائج ، وإنما العبرة بقيمته .

وطه حسين درس الأدب العربي والأدب الفرنسي دراسة منظمة ، وهو أول من عرفنا كيف ندرس أدبنا كما يدرس الغربيون آدابهم . فله بذلك فضل السبق .

الف — فهرس

الموضوع	الصفحة
إهداء الكتاب .	٣
إهداء آخر	٩
مقدمة	١٢
١ — طه حسين الشاعر	١٦
٢ — شعر طه حسين	٤٦
٣ — طه حسين الكاتب	٨٢
٤ — طه حسين الناقد الأدبي	٩٥
(أ) بين طه حسين والشيخ عثمان المهدي	٩٥
(ب) بين طه حسين والمنفلوطي	٩٩
(ح) بين طه حسين والرافعي	١١٦
(د) بين طه حسين وأستاذه المهدي	١٢١
٥ — طه حسين المتكلم	١٢٤
٦ — طه حسين ومشكلة المرأة	١٣٤
٧ — طه حسين السيامي	١٥٦

• ملاحظة — ورد في ص ٨ عقل العقول زكيها والصواب ذكيها بالذال وفي ص ٦٩

أنا قد جربت منه إن تصدقني فنونا

والصواب « صنوفا » بدل « فنونا »